

ميريت



طارق إمام
هدوء القتلة



هُدوء القتلة

هَبْوَةُ الْقَتْلَةِ

رَوَايَةُ

طَارِقُ إِسَامِ

الطبعة الأولى: ٢٠٠٧

(c) دار ميريت

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١ (٢٠٢)

www.darmerit.net

merit56@hotmail.com

الغلاف أحمد اللباد

المدير العام محمد هاشم

رقم الإيداع: ١٩٧٩٩/٢٠٠٧

التوزيع الدولي: 9-376-351-977

طارق إمام

هُدُوءُ الْقَتْلَةِ

رواية

دار ميريت

القاهرة ٢٠٠٨

إلى فارس خضر.

وتراجعوا في خوف أول الأمر، وأسموني الخطيئة
ورأوني آية نذير، ولكنهم حينما اعتادوا علي رقت لهم، وفاضت
مفاتي الخلاية فأحببني أشد من عاداني، لا سيما أنت، إذ كثيرا ما
رأيت ذاتك في ذاتي، وصورتك في صورتي فتولّعت بي، ونشدت
متعة معي في الخفاء.

جون ملتون

الفردوس المفقود

وخذ بقية ما أبقيت من رمق
لا خير في الحبّ إن أبقى على المهج

ابن الفارض

تبدو القاهرة لمن لا يعرفها مدينةً شديدة الضخامة، غير أن القتلة فقط وهم حاملون بالضرورة يُدركون أن ذلك غير صحيح.

صدقت دائماً أن تاريخ الدماء هنا بدأ من حكاية ناسك، كان يسكن قبواً قامت فوق أطلاله فيما بعد تلك البناية الزجاجية الضخمة التي صارت رمزاً للمدينة الشاحبة. البناية التي يمكنك أن تراها من أي بقعة، والتي أقف الآن في شرفة طابقها الثالث والعشرين.. أراقب الصباح من خلف النوافذ بوجه غائب، يفتش في البيوت البعيدة عن بقاياها. ربما أتطلع أيضاً للطائرات الورقية التي تصطدم كل لحظات بالواجهة، لتخدش في كل مرة قطعة جديدة من جسدها. نعوش صغيرة وهشة تطارد الهواء الشاسع، يلتصق بعضها بالزجاج قبل أن تتفلت مدفوعة بالخيط.. كأن يداً بعيدة لإله مغدور تحركها.

كان الناسكُ حليفاً، بما يليق برجل رأى الله كثيراً في مناماته وعرف أقصر الطرق لتجنبه. في أذنه اليسرى قرط معدني على

هيئة ثعبان مجنح يتدلى حتى كتفه، ومكان أذنه اليسرى التي سقطت ذات يوم فجأة، بعد أن تآكلت من طول التتصت على غرف المدينة المغلقة - بُنيت قماشاً.

كانت الفئران تتقافز في حجره، تلتهم فتات الخبز الذي يبقى من طعامه، ويده المقدسة تعود أن يُمس على فرائها المنحولة، ويتحسس ذيولها المتطاولة الملتوية المنفلتة على الدوام من بين أصابعه. من أنوفها الدقيقة تتساقط نقاط الدماء وتذوب في جلبابه، ولكنه رغم ذلك لم يكن يخشى الطواغيت.

ليست الفئران وحدها شريكة صباحاته.. يخرج النمل من جحوره وتتمدد السحالي على الحوائط، ومن الكوة المفتوحة في الجدار الذي يسند إليه ظهره تدخل النسور مدومة الهواء الشحيح إنذاراً بموت قادم أو تنبيهاً بجثمان فاحت رائحته دون أن ينتبه الناسك الغارق في أحلام يقظته.

في أحيان كثيرة كان يمد رأسه من تجويف الكوة غير منتظمة الحواف. كانت الفتحة المرتجلة بحجم رأسه بالضبط، لذا كان يجد صعوبة حقيقية عند إدخاله من جديد، ويعتقد لوهلة لكن دون فزع أن رأسه سيظل هكذا، يطل على الحياة، بينما جسده في الداخل يتيبس ويشيخ دون أن يقوى على فعل أي شيء.

كان يتأمل المدينة التي صارت مكاناً آخر غير الذي وطأته قدماء منذ ما يزيد على ألف سنة. لقد كانت - حين جاء حافياً تحت شمس قوية - أشبه بدير كبير خالٍ لا يحتاج الناس فيه إلماً كي يتعذبوا.

كانوا يذبلون فجأة، ويستيقظ كل صباح على حفرة جديدة تستقبلها الأرض ليسكنوا جثثاً جديداً سيضاف إلى تعداد الأشباح التي تطوق المدينة. وكانوا رغم ذلك يبتسمون طوال الوقت.. ولكنه كان يشخص مثلما أفعل الآن كما أعتقد فوق صفوف البيوت المتراسة الواطئة، محركاً كف يده كمن يلوح إلى مسافر يعرف أنه لن يعود، بعد أن نقلوا كل الرفات إلى مكان بعيد عن تخوم المدينة، وصاروا يتحركون مثل قطع صغيرة معدة للحياة في لعبة غامضة.

كل صباح، كان يمد أصابعه الخشبية النحيلة نحو المجلد الضخم: تاريخ غرامه السري. كان جميع من يتلصصون عليه أثناء تفحصه له بوجل بينما تغرق دموعه جليابه المهترئ يظنونه كتاباً مقدساً. كانت هذه اللحظات هي الأشد سرية في صباحاته، حيث يغلق بابه على نفسه، مستعيداً هيئة الديكتاتور الذي كانه ذات يوم، والذي كان قادراً على تحطيم جدران المعبد، والمدينة ذاتها، والعالم، بمجرد نفثة غضب موجهة للسماء دون وسيط.. ليأمر بطرد الفئران وقتل الضوء الذي يتسلل ليخون وصاياه.. يحنط الزواحف على حائطه بنظرة ويحيل النمل المتسارع في هربه لعلامات سوداء ميتة. وعندما يصير توحده نهائياً، يبدأ بتصفح الأوراق. يتحسس وروداً شاخت وفراشات هشة يكفي زفير ضعيف للإطاحة بتاريخ صمودها.

طالما رأى أشياء رؤية العين كانت تتحطم على صخرة الإفاقة من أحلام يقظته، كالبنيت النحيلة التي تعبر كشبح إلى غرفة

نومه. تترك وردة تحت وسادته بينما ترتبك الأحلام قليلاً من جراء التحريك الخفيف لرأسه ويمد أصابعه محاذراً ألا تجرحه الأثواك أو تباغته اليقظة، ولكنه كان يفيق ليكتشف أن الأوراق الحمراء المفتحة تحت وسادته ليست سوى آثار لعبه الدموي. لعبه الدموي هذا نفسه تمنى أن يكون مسموماً، ليضمن إن قبل امرأة أن يكون صاحب آخر شفتين تتذوقهما في حياتها. ولكن، كان يقول: ماذا لو ابتلعت أنا السم؟.. لن تخسر هي حينها سوى بعض الدماء على شفتيها مقابل قبلة مقدسة.

هكذا ظل يتوهم حروباً لم يخضها، ويحاط لأشخاص لن يراهم أبداً، ووصلت ألفته بجدران حد أنه صار قادراً على تحريك الحوائط بمجرد النظر إليها، وهدمها تماماً في لبالي مشبه الأبدى أثناء نومه، وهو يحمل مجلده، باحثاً في وجوه المدينة عن امرأة تصلح لأحلامه القادمة.

ترك الرجل مخطوطه الدموي المقدس، كتابه الذي ظنه ذات يوم سرياً.. كما ترك نسلًا كثيراً في أرجاء المدينة، أبناء وأحفاداً يحملون وجهه، عينيهِ الملونتين وصوته المبحوح جميعهم قتلة متوحدون غارقون في منامات خطيرة مثله، لا يرون وجه الله سوى بعيون مغلقة.. وقد عرفت دائماً - دون أن أحتاج لجهد كبير أنني واحد من هؤلاء.

تعوّد جابر في المرات التي كان يمر فيها بـ "ليل الإسكافي- أن يترك له ساقه الصناعية كلها، ويمشي متعكراً على عصاه، عائداً إلى بيته.

هذه الساق اليسرى هي خلود جابر الحقيقي: ساق قوية، ناعمة ومصقولة، لن تشيخ أبداً، ولن تصحبه إلى مقبرته.. وحتى إن فعلت، لن تفنى، لن يهزمها التراب.

ساقه التي لا تؤلمه، لا تعرفها الكدمات ولا تنز منها الدماء.. أما ساقه اليمنى.. النحيبة المشعرة، ساقه التي تنتمي له تماماً.. فيترك قدمها حافية، تدوس على قطع الزجاج وحصى الشوارع. قدم مجربة مدماة تليق بشخص مثله.

تعوّد ليل بدوره أن ينهمك في تأمل تلك الساق الميتة التي يتركها له صاحبها في كل مرة، كلعنة خفية كانت تترك خلفها ليل عامرة بالكوابيس.

وكان ليل يندهش دائماً، بينما يخلع عنها فردة الحذاء، أن لقدمها الحافية رائحة عفنة رائحة قدم بشرية.

قرر ليل كثيراً أن يقتل جابر. تمنى لو كان لا يزال محتفظاً بمطوائه العتيقة اليازمة الآن، ليرفعها لحظة اقترابه منه ويتركها تذكراً في عنقه، ثم يهرب. فعلها ليل كثيراً قبل ذلك.. قاتل محترفاً لم يعد يذكر حتى عدد قتلاه. أفنعة غائمة، متوحدة، بابتسامات غير مبررة.. ابتسامات من غادروا الدنيا دون أن يقرروا ذلك ودون أن يعترضوا عليه بحسم في الوقت ذاته. كانوا فقط يهاجمونه في أحلامه التي كان يستيقظ معها غير مصدق أنه لا يزال على قيد الحياة.

أخبرني ليل بنوياه بينما يؤكد أنه لم يعد ينام. يجيء ضحاياه القدامى في الأحلام حاملين جميعاً ساق جابر الضخمة الملساء ثم يدقون بكعب حذاءها القوي المليء بالمسامير التي ثبتها ليل بالذات رأسه حتى يتناثر.

لم أكن أعلق، وكنت أريد أن أخبر ليل أنني أيضاً قاتل، قاتل شاب متوحد.. وأنه من خبرتي المحدودة فإن قتله لجابر لن يحل المشكلة.. على العكس، ستزداد تعقيداً، لأن جابر سيأتي بعد ذلك بنفسه في مناماته، سيرفع ساقه بيده القوية هابطاً بها على رأسه ليقتله في الواقع.. وليستيقظ ليل مفاجئاً بفئات جمجمته على ملأه السرير.

بيت ليل ليس سوى غرفة في قلب المقابر، ويعتقد الكثيرون أن جابر ليس سوى شبح أزرق يزوره في صباحاته.. خاصة أن أحداً لم ير جابر سوى كحامل للنعوش، يزك قليلاً بينما "يؤاجر

بقدمين غير متساويتين: واحدة غائصة في الحصى والأخرى معزولة في فردة حذاء عالية الكعب.. لتهتز النعوش مع اهتزازة تحت أركانها. يعرف ليل ذلك، وربما لهذا السبب فكر ليل كثيراً، عرف أن قتله لجابر سيكون آمناً: إما أن تخترق المطواة جسده الشبحي ليتأكد أنه ليس سوى حلم يقظة.. وإما أن تنفجر الدماء مخلصاً إياه من ذلك القاتل الشخصي. لم يكن ليل يخاف من الحل الثاني، ولكنه كان يموت رعباً إن هو قتل شبحاً، لأن لعنة المنامات بعدها ستحول إلى انتقام معلن سيتحول معه الإسكافي الخائف إلى مجذوب.

"إذا أردت الإنتقام من ألد أعدائك دعه يحيا" هكذا تركت لديّ الحياة بعض حكمتها. لم أعرف شخصاً قبل ذلك عاقبه الموت.. بينما أستطيع أن أحصي لك عشرات بل مئات.. آلاف.. ملايين الأشخاص ممن تكفلت بهم الحياة.

على أية حال لا أستطيع أن أقول ذلك أمامه. على القاتل خاصة ممن ينتمون للنوعية النادرة التي أنتمى إليها أن يخفي فلسفته، لأن فلسفة القاتل هي نفسها آثار جرائمه.. اللحظة التي يستطيع فيها شخص أن يعرف كيف تفكر وليس كيف تنفذ جرائمك هي دائماً اللحظة التي تموت فيها، وهو أيضاً.. لأن من يكشف عن قاتل حقيقي هو بالضرورة - وكما تعلمنا - قاتل مبيت. ليل سَتَك دماء كثيرة قبل ذلك.. بحكمة، حتى أن يده أبداً لم تلوث. أعرف جيداً يد القاتل الأصيل: إنها تشبه على نحو ما يد عازف. أناملها مخنثة، أطرافها ناعلة ووردية، لا بد أن تكون

أطرافها وردية لها ذلك اللون الذي لا تخطئه عين خبيرة يدُ
القاتل تحتفظ دوماً بتاريخها، لأنها لا تملك سواه.. وهذا هو الفارق
الجوهري، وربما الوحيد، بينها وبين يد الشاعر: فرغم التشابه
الرهيب بينهما إلا أن الثانية تبقى آمنة، نعم آمنة، لأنها بينما
تستحضر لحظات زائلة.. تكون الأولى بالتزامن منهمكة بكل
إخلاص، في تأكيد حيوات مبتورة.

أعرف الاثنتين بشكل شخصي. يدي اليمنى تستريح في
قفازها القطيفي الداكن.. تبدو أصابعها المتطاولة أشباحاً مشهورة،
أما اليسرى فأكتب بها القصائد. عارية دائماً وملوثة بالأخبار.
مبتردة ومرتعشة عكس أختها المتدثرة الوائقة.. خاصة أنني قاتل
شتائي، أحب التحرك في الليالي المظلمة الباردة. أقدم الطعام
للقطط والسم لأصدقائي. أعبر بين بشر قليلين بينما يتساقط المطر
بلا هوادة ليغرق سترتي الجلدية وكوفيتي التي تخفي تجاعيد
الرقة، التجاعيد التي تليق بقاتل شاب أثقلته الحيوانات. يفسد المطرُ
السجارة في ركن فمي، ويُسوِّش رؤيتي بينما يحول أحلام يقظتي
لجثة كبيرة بلا دماء.. بلا نظرة رعب ولا شحوب يدفع يدي
اليسرى للتململ.

أعبر كأني شخص، وقد يصطدم بي أجبن رجل، يؤلم عظمة
كتفي دون كلمة اعتذار.. دون أن يتخيل أن هذا الشيخ الهرم - ذي
الثلاثين عاماً - الذي غادره، يمتهن الطعنات.

يدي اليمنى خشنه، ليس بفعل القتل بالطبع، ولكنها اليد التي
أعمل بها في الحقل.. أحمل بها الفأس دون أن أجرؤ على دعوة
اليسرى للمشاركة. أجعلها مصيدةً للأشواك لتستريح الوردة بلا
نصل في اليد اليسرى، الناعمة، المرصعة بالخواتم، البذخة،
المترفة، التي أخشى على يتمها من بعدي. أنفق كل أجري على
تزيينها، أغذي نرجسيتها، أطيل أظافرها وأنسقها وأطليها.

أستطيع أن أقول - وليرحمني الله ويغفر لي - إنني أقهر يدي
اليمنى لأغذي كبرياء يدي اليسرى. أخطر بحياة اليمنى لصالح
خلود اليسرى.

بيدي اليمنى أصافح أعدائي، وأمنح التحية لكل من أكرههم،
وأقتل من لا أعرفهم. يذ تحمل آثار ملايين الأشخاص في راحتها:
خليط روائح ولزوجة عرق وعبور ودماء.. بخلاف اليسرى،
النقية: يدي التي لا تحمل سوى رائحتها ولا تصافح سوى الهواء
الملاصق لمدارها.

أحب الاثنين بالقطع، ولكن هكذا علمتنا الحياة: لا بد دائماً أن
يموت أخٌ ليحيا نؤامه.

أنا القاتل الذي يخطر بحياته ليترك للعالم قصائده كما ينبغي
أن تكون: كتبها يذ بلا تاريخ، بدماء الضحايا، على نفقة أخت
كادحة.. وعما قليل سينتهي ليل من إصلاح كعب حذائي كإسكافي
مخلص، وسأؤكد له أن جابر ليس سوى شبح بدليل أنني لم أره
بينما كانا منهمكين في حديثهما: كان ليل في الحقيقة يخاطب
الهواء.

سأُتجه إلى غرفةٍ شحيحة الضوء، في أحد البيوت، أقتل ضحيةً جديدةً في سريرها. أترك سطرًا جديدًا من الشعر القاني على ملاءة سرير، على حائط، أو بامتداد الأرضية.. سطر في قصيدتي النهائية المكتوبة بامتداد صفحات المدينة المفتوحة أمامي ككتابٍ لم يُكتب. بعدها سأُنظف نصل المطواة من آثار الطعنة.. لتُنهك يدي اليسرى في كتابة قصيدة جديدة في ديواني، وقرب الصباح أنام تاركاً اليدين لشجار الليل الذي يقطعه استيقاظي عادةً ؛ بينما توشك إحداهما أن تفتك بالأخرى.

لو كان جابر شبحاً ما سألت منه كل هذه الدماء.
 دسست مطواتي أولاً في ساقه الوهمية فصرخ وانتفض
 جسده. عندما وجهت طعنتي الثانية إلى ساقه اليمنى، المعذبة،
 وسألت الدماء غزيرة منها، أغلق عينيه متوحداً. فكرت أن أعطيه
 المطواة وأقول له هيا.. جرب يا جابر الآن.. كفكف دماءك
 ووجه طعنة ليدي اليسرى ثم أخرى لليمنى. أريد أن أعرف أيهما
 ستؤلمني أكثر. ربما تنز الدماء من إحدهما دون الأخرى. ربما
 أكتشف على يدك بالذات أنني عشت حياتي كلها بيد غير حقيقية..
 ابنة غير شرعية. فكر معي يا جابر.. يا شبح النهارات الأزرق
 أيهما ستكون صدمتي فيها أكبر؟ لو كانت اليسرى فذلك يعني
 أنني لست شاعراً كما ظلمت أتوهم.. هذه القصائد ليست لي.. وكل
 ما أنفقته عليها من عطور وحلي كعشيقه ذهب هباء.. ولو كانت
 اليمنى.. آآآه.. الكادحة الشقيانة.. ألا يكفيها ما تعانيه؟ هل تتحمل
 صدمة اكتشافها أنها لقيطة؟ أنني التقتتها من شارع لتحيا مع
 ابنتي الحقيقية التي من صلبتي؟ وستبرر وقتها تفضيلي لأختها

عليها كل هذا العمر. في هذه الحالة أيضا سأصير برئاً من كل
الدماء التي أسألتها.

لا يا جابر. لن أعطيك المطواة. لن أحتمل مواجهة الحقيقة.
ما الفرق بين أن تعرف وألا تعرف ؟ الفارق الوحيد هو أن من
يعرف يظل يتألم. إليك إذن بطعنة في فم المعدة. لابد أن أتأكد أن
لك أحشاء. ذلك هو البرهان الجوهري على أنك لست طيفاً يطارد
ليل لو تأكدت أن ليل كاذب أعدك أن أقتله، لكن ليس لأنه
كاذب. لابد أن تُقدّر يا جابر. ألم تطلع على دفتر قصائدي في
المقهى المجاور لبيتك ؟ ألم تطلب بنفسك أن أطلعك على قصيدة ؟
إليك بها إذن.. ربما لم تكن تعرف يومها أن قربان قصائدي
أجساداً دافئة. سأهدي الديوان عندما أنتهي منه لقتلاي بالترتيب.
ستجد الشرطة أسماء القتلى في صفحة الإهداء وكذلك بامتداد
القصائد كل قتيل يحيا في قصيدة، وسيصلون إلي بسهولة وهذا
بالضبط ما أريده. ستكون مهمتي في هذا العالم قد انتهت بخروج
الديوان للوجود. ستموت يدي اليسرى التي كتبت واليمنى التي
قتلت. ستعيشان في بطالة. وجودي سيكون انتهى. أنت طلبت يا
جابر، وطلبك مجاب، خاصة وأنك تشبهني كثيراً.. مشغول
بقدميك مثلما أنا مشغول بيدي. يقول الناسك *إذا شككت في شبح
وجه له طعنك لأنه قد يكون لعنتك*.

التقطني جابر من ظهيرة الشارع بينما أبدأ رحلة التعداد
السكاني، رحلتي المقدسة كموظف صغير مخلص في الجهاز
المركزي للتعبئة العامة والإحصاء. كنت أسأل عن ليل الذي

أخبروني أن مكان جلسته تحت شجرة وارفة، بعد أن فشلت في العثور عليه في غرفته بمقابر البساتين طيلة سنة أيام من الزيارات اليومية. يومها اقترب مني جابر.

- حضرتك بدور على ليل "الصُرماطي" ؟
أيوه.

- زمانه جاي.. ابن القحبة مبيّت رجلي معاه من امبارح.
لم أرُد. اكتشفت ساقه الخالية عندما نظرت إلى قدميه،
وارتجفت.

حضرتك عايزه في إيه ؟
- حاجة تبّع التعداد.

عارف الليلة دي.. دي بتتعمل كل كام سنة.. كتر خير
الحكومة ما بتتساش الناس أبدا.
عارف ؟ لما عملوا الموضوع ده آخر مرة كانت
المرحومة لسه عايشة.
- مين؟

رجلي.. ههههههههههه.

- انت ليه لابس قميص بكم وقافل الياقة ؟ دا الجو مولع.
ضايقتني تطفله. واستبداله كلمة حضرتك ب انت
أعرف هذه النوعية عن ظهر قلب، بعد دقائق سيبدأ حاجز
الاحترام الوهمي في الذوبان. هممت بالانصراف ولكنه باغتني
بسؤال أغرب.

انت مسيحي ؟
لا.

اصل الكفائتسه اليومين دول بيدارو ايديهم..... وحضرتك
ليه اخترت منطقتنا بالذات ؟
ها قد عاد ل" حضرتك من جديد. هذا سلوك جيد.
أنا مكلف.

لو كنت موظفا في الجهاز المركزي للتعبئة العامة
والإحصاء، فستعرف أي شخص أنت، وأي مهمة يمثلها عمل
التعداد السكاني، والذي لا يتاح للعاملين فيها إلا مرات معدودة في
العمر. التعداد يتم مرة كل عشر سنوات. وبحسبة بسيطة، فإن
أوفر الموظفين حظا لا يشهد هذا الحدث سوى أربع مرات على
الأكثر في تاريخه الوظيفي كله. ورغم أن أمامي ثلاث مرات في
الثلاثين عاما القادمة.. إلا أنني عرفت دائما أنني لن أشارك في
هذا الطقس المقدس سوى مرة واحدة في حياتي.

اسمي في المهمة المقدسة معاون تعداد، فرد في طابور
مكلف. يراقبني مراقب تعداد، يفتش عليه مفتش تعداد. ومثلما
أنظر لأعلى لرؤسائي، فإن هناك من أنظر عليهم من أعلى:
العدلين. مراهقون تخرجوا نوا، يؤدون "الخدمة العامة" هذا جيل
محظوظ. كل عشر سنوات تحظى دفعة واحدة بخوض هذه
التجربة المثيرة. يدخلون البيوت. يبتسمون لأشخاص لا يعرفونهم.
يسألون عن كل شيء. يفعلون ذلك في الصباحات، ثم يجتمعون
هنا. يفرغون الناس في استمارات الورق المقوي.. بين يدي. قمب

الليل، في أركان الفناء المعتمّة، والتي كانت تشعرني* أنني في زمن آخر أقرأ سيرة سرية لحفنة أشباح.

- ماتأخذ بياناتي بالمرة.. أنا ساكن في البيت ده.. اللي على سطحه " دش

أشار جابر لبناية عند نهاية الشارع الضيق. لم أُرِدْ، وكنت أريد أن أقول له إن المسألة ليست بهذه العشوائية. مش شغلتي آخذ بيانات يا روح امك.

أنا متجوز وعندي بنت لكن مش موجودين دلوقت.. دول يتحسبوا ؟

لفتت عبارته انتباهي، وأدهشتني حميميته الغريبة في التحدث.

- طبعاً يتحسبوا.. هما فين ؟

- طفشوا وسابوني.. رجعت مرة من أجازة مالقيتش في البيت ولا حتة عفش.. ع البلاط سيادتك.

أشعرتني كلمة سيادتك أنه يتحدث إلى ضابط. لا أعرف لماذا قطّبت حاجبي في ضجر الضباط المعتاد ونفاد صبرهم.

- انت بتشتغل ايه ؟

- وقتها كنت لسه في الجيش.

- وممكن يكونو فين ؟ سألت قراييك ؟

- ما سبتش.. الولية كانت بتتام مع طوب الأرض يا باشا..

وأول ما البت جابت دم بقت زيتها. أنا كنت باسمع لكن ما شفتش وقلت لما اطلع معاش يحلها ربنا. تخيل.. بعد ما انقطعت رجلي

ما بقشش نرضى ننام معايا.. إبن بتاعي هو اللي اتقطع
ههههههههههه.

سعل بشدة ونفرت عروق وجهه.

ورجلك اتقطعت ازاي ؟

في مشروع حرب.. وكتبوا في استمارات الخسائر الساق
البسرى للوصول جابر عبد السلام الشرقاوي.

هاه.. هتكتبوا إيه في الموضوع ده ؟

لم أرد. كنت محتاراً بالفعل وقررت أن أسأل في الهيئة عن
التوصيف الدقيق للحالة.

تخيل يا أستاذ.. كل ما اشوف واحدة منقبة، أكشف وشها..
اتبهذلت ضرب واقسام.

خذ هذه الطعنة النهائية في قلبك يا جابر. لن أقول لك إن

ليل حكى لي الواقعة بشكل مختلف. لا يهمني ذلك. الكذب ليس
أحد الأشياء التي أكرهها. ألم أخبرك أنني شاعر ؟ .. لا.. لم
أخبرك. انت اكتشفت ذلك وحدك، حين باغتني في المقهى ورأيت
يدي البسرى وهي تعمل. كشفت سري أيها الوغد.

قال لي ليل

- ما تصدق هوش ده بتاع عيال.. هتاك عرض واد مسيحي في
الكتيبة بتاعته.. وطبعا الواد ما أخذش لا حق ولا باطل لما
اشتكى.. جه في المشروع نشن على بتاع جابر.. لكن جت في

رجله.. وطبعاً ما عليهوش أي مسئولية. جابر أساساً بيكره الكفاتسة علشان مراته كانت بتحب تنام معاهم.. كيف عندها. وقعت في الفخ بسرعة يا جابر. أتيت إليّ في المدرسة حسب الموعد. قفزت من فوق السور كما أخبرتك.. بخفة الشبح التي علّمها إياك سنوات الصاعقة الطويلة. في الحادية عشرة مساء. كنت تريد أن تعرف.. أليس كذلك ؟ ها قد عرفت. غداً سأتي إلي المدرسة في الموعد.. سيكون هناك هرج ومرج.. ستكون أنت البطل لأيام طويلة، حتى بعد انتهاء العمل.. قتيل في الفناء غارق في بركة دماء تشربها الرمل.. رجل وحيد بسبعة تذكارات في جسده.

فكرت منذ قليل أن أضيف وشماً جديداً إلى جسدي، غير أنني اكتشفت بحسرة - في مواجهة المرأة، بينما أفتش عن مكان خالٍ أنه لا توجد أي مساحة فارغة فيه. فبامتداد صدري وبطني وذراعي، والحال نفسه مع ظهري، كانت تحيا الأيقونات وسطور الشعر التي توالى في أزمنة عديدة، ليحتل كل منها مكانه الأبدي، كأنها ندوب، في خريطة نصفي الأعلى. أحببتُ دائماً أن يكون جسدي مثل ورقة مكتوبة بحبر باهت. ذلك يجعلني راضياً بشكلٍ ما، رغم أنني أضطر لأرتداء قمصان مقفولة ذات أكمام على الدوام، وداكنة، كي لا تتجع عين فضولية في اختراقها لمشاهدة ما تخفيه. ربما لهذا السبب تحديداً أعشق الشتاء، لأن الملابس الثقيلة في هذه الحالة تعمل كمقبرة.

العبارة التي أردتُ أن أضيفها للحمي، كانت سطرأ من الشعر لابن الفارض: « ما بين معترك الأحداق والمهج.. أنا القَتِيلُ بلا إثم ولا حرج ».. غير أن اكتشافي المُحبط جعلني أتأسى الأمر مؤقتاً، أو، إن شئنا الدقة، فإنني مجبرٌ على تناسي الأمر للأبد.. لا فرصة لزائر جديد إذن.

أريدُ أن أذهب إلى طبيب، وأخبره أنني لم أعد أنام، بالمعنى الحرفي للكلمة. أنا شخصٌ بلا أحلام، ورغم أن ذلك قد يمثل حسرةً للبعض.. إلا أنه لا يعني بالنسبة لي أكثر من اضطراري لقضاء وقت أطول مع أشياء تحدث بالفعل، أشياء على أن أصدق وجودها. منذ فترة صرتُ أمشي أثناء النوم على حافة السطح، تتبدى لي قاهرة أول الفجر حلماً شاسعاً، بيتاً كبيراً من التراب. الآن يراني الجيران كثيراً أتحرك على الحافة، بقدم للأمام وأخرى للخلف.. تتبادلان القيادة.. ذراعيّ في الهواء، تحفظان لي حياتي النائمة، ترفضان بحسم أن أموت دون أن أدري، أن أستيظ في الصباح التالي لأكتشف أنني لم أعد أتتفس، وأنني أطارِد وحدي السموات الكثيفة الداكنة في عَمَة مقبرة.

مرت الشاحنات منذ قليل وتوسطت صفي البيوت. ربما يكون هديرها الخشن أحد أسباب توترِي، أنساني جسدي وأجبرني أن أطل على الشارع. تطلعت إليها من خلف الزجاج. رأيتها، مثلما رأتها السيدة التي كانت تنسق أشجار حديقة منزلها المرتجلة في طرف الشارع.. ومثلما رآها القعيد الأربعيني من أحد البلكنات بينما ينظف زجاج نظارته الطبية ليتمتع برؤية أفضل: أكره هذا الرجل. حين يتطلع إلى السماء وهو يفعل ذلك كثيراً ينسى نظارته للأبد، وأشعر أنه أعمى. فقط عندما ينظر إلى أسفل، إلى الشارع، يرتديها. أيضاً رآها الأطفال الذين تدرجت كرتهم تحت إحداها وزحفوا على بطونهم للتفتيش عنها.

لا تريد الشاحنات شيئاً من هذه البيوت، فسائقو الشاحنات كل سائقي الشاحنات - يعرفون بشكل غامض أن بيتاً مكتملاً في مكان يعني مقبرة مكتملة في مكان آخر.

السائقون يدخلون بصبر نافذ ويسمعون صخب الأطفال تحت المحركات. من المفترض أن تلقى الشاحنات جبال الرمل والزلط على إسفلت الشارع، أمام المربع الخالي الذي سيصير عما قريب بيتاً.. وهذا الرجل الذي يلوح بابتسامة كائن صار له أخيراً مكان يخصه ويعود إليه، ستصير له جدران تحمل آثار أصابعه.. وعائلة، وسيمتح السائقين - بتسامح - أكثر مما يستحقون.. بينما يمسك حفنات الرمل في قبضته ويتركها تسيل من بين أصابعه ببطء، ويمس على كريات الزلط الناعمة الصلبة.

سيذكر هذا الرجل - وللأبد - المقدمات المتشابهة للشاحنات بالكشافات التي تومض وتنطفئ، ولكنه لن يتذكر أبداً ملامح أي من السائقين. غبار العجلات هو الذكرى الوحيدة التي ستبقى في أنوف الجيران، والتي لن تعيش كثيراً مع ذلك. حتى الأطفال لن يتذكروا. سيلتقطون الكرة ويخرجون منبطحين كما دخلوا. لو كنت أحد هؤلاء السائقين لتحركت بسيارتي فجأة للخلف وانحرفت بزواية حادة تاركاً جثة طفل بين العجلات.. ليتمزج صراخه بصراخها الهادر.. ففضلاً عن أنني لن أعاقب.. سأحول ذلك اليوم إلى ذكرى في كل البيوت القريبة.. في قلوب الآباء والأمهات والأطفال. سيصير هذا اليوم خالداً.. غير أن الناس - للأسف يحبون الأيام المتشابهة الدنيا التي لا يحدث فيها شيء يوقف

الدموع.. وقريبا، ستستقبل هذه الدنيا بالذات بيتاً جديداً يزدحم بالأنفاس، وستصير للعجائز الملولات بالشوارب الخفيفة جارة شابة، لطيفة، تملك طيوراً في قفص، ولديها الكثير من الأسرار. أغلقتُ الشباك وأسدت الستائر وأطفأت الأنوار. هذه الشقة غرفة تحميم. يجب أن تعمل في العتمة لتطلع الناس على صورهم في النور. هكذا أفكر قبل التوجه للضحية. التقطت شريطاً ووضعت في جهاز الكاسيت المتهاك. الصوت المشروخ يصدح من أعماق نقطة ألم يبكي ويضحك لا حزناً ولا فرحاً.. كعاشقٍ خط سطرًا في الهواء ومحا.. قلبٌ تمرّس بالذات وهو فتى.. كبرعُم مسه الرياح فانفتحا. سمعت هذه الأغنية لأول مرة مع سلمى في عتمة سينما جالاكسي المحكمة. بكت يومها وضممتها إلى صدرى واكتشفت أن لها صدرًا جميلاً لم أشعر به أبداً وهي عارية. هناك ضوءٌ في الشقة. من أين يأتي ؟. تحرك بين الغرف وتأكدت أنني أتيت على كل مصادر الضوء. رغم ذلك لا تزال العتمة مجروحة. لا بأس، لعله ضوء الله الذي لا بد أن يراني بوضوح.

المُصوّر الكهل رفض أن يسمح لي بدخول غرفة التحميم. ابستم بسماجة وقال

- ما ينفعش.. هاه.. عايز كام صورة ؟ فيه ٨ بانتاشر جنيه و

١٦ بعشرين.

- أنا مش محتاج غير صورة واحدة.

- خلاص.. يبقى ٨ كفاية.. بس ليه صورة واحدة ؟ هههه.

ممكن حضرتك تستلم الصور بعد نص ساعة.
أعطاني وصلًا. رجل محني وأصلع.
- مش هينفع انهارد.. هاجي بكرة.

لماذا يحيط غرفة التحميص بكل هذه السرية ؟ هل سأضيئها بدخولي ؟ طالما حلمت بالوقوف داخل غرفة تحميص معتمة، في اللون الأحمر القاتم الموحى. ترى وجوه الناس كأنك تبعثها من ميثاتها. تحرص عليها كأنها أرواح تتشكل بين أناملك فقط. أضف إلى ذلك أنه قال

أنا عندي أقدم غرفة تحميم في مصر. القاهرة دي كلها نائمة حوا.

أرهقني كثيرا لدى النقاط الصورة.
ابنسامتك الحلوة.

هذه صورة لغلاف الديوان يا سيدي. كل المصورين يعشقون
ابتسامات الزبائن.

۱۔ معاش مش عایز ابٹسم۔

عَلشان سَنانك صَفْرًا... ههههههههه.

جاملته بابتسامة خفيفة بدلا من أن أصفعه، فبرق الفلاش.

كل الزبائن بعمل معاهم كدة.. أضحكهم واقوم لاقطهم.

أصررت على النقاط الصورة من جديد. أدرك أنني بدأت أتوتر فصمت. قال

۔ براحتک.. هوہ وشک ولا وشی

وتذوقت بطرف لساني مذاق التراب الجديد الذي استقبله الشارع
اليوم.

ايه يا عم.. أقولك بعد نص ساعة تيجي بعد أسبوع ؟
قالها المصورٌ بحميمية غير مبررة.
آمال ليه طلبتها فوري ؟ كان ممكن تدفع فلوس أقل.
معلش أصلي انشغلت شوية.
اتفضل.

فضضت الطرف بلهفة. أبتسمُ في الصور.
مش دي.. عايز الصورة الثانية.
ثانية إيه ؟

اللي مش ببتسم فيها.
آاه.. هي دي الصورة الثانية.. لاحظ حضرتك.. النور فيها
ضعيف زي ما طلبت.. الأولانية كانت منورة.
بس انا ما ابتسمتش في الثانية.
مصور مأفون، ولكنه صادق. من أين أتت الابتسامة ؟
عبرته إلى غرفة التحميص بسرعة.
بتعمل إيه ؟
هدور على الصورة.

لحق بي بينما كنت الآن في الداخل. انفتح الباب بمجرد أن
أدرب" الأكره" ووجدت نفسي أخيرا في حلمه الخاص. تشابكنا في
الغرفة الشبكية بينما بدأ يصرخ اخرج.. اخرج.

ثوان معدودة قضيتها بعد أن ارتاحت جثته على الأرض.
بعدها خرجت وأغلقت باب الغرفة بهدوء. عبرت الغرفة الخارجية
إلى الشارع، وكان هدير الشاحنات لا يزال يطن في أذني.

سماء القاهرة غريبة اليوم. طائرات قليلة تعبرها باتجاه المطار القريب من العمل. بالمقابل، تزدحم الطائرات الورقية. تجعلني الطائرات الورقية أفكر في أذرع الأطفال الصغيرة الممدودة بإحدى بقاع المدينة. أصابع تتشب بالخيط لازالت السماء أمامهم حلماً قابلاً للتحقق.

الطائرات الحقيقية.. تلك الجثث المعدنية ذاب الصوت اللاذع الخاطف، تحيلني لنوم متعب لغرباء. يرون اليابسة السفلية البعيدة حفنة من الخرائط. لا فرق بين عائد ومغادر، كلاهما غريب، كلاهما معلق في هذه السماء.

يتشابه الغرباء كثيراً في أعينهم حكمة أبعد من أعمارهم. لا يعبأون إن سقطت الطائرة في محيط شاسع أو تناثر جسدها في غابة متشابكة. لا فرق بين سمكة قرش جائعة أو أسد ييحب عن وجبته. سيكون هناك في كل الحالات مشهدٌ مضحك يسبق لحظات الوداع، أيقونة سعادة داكنة أخطبوط يطارد سمكة قرصب أحد أذرع، أو فرد يلهث وراء إصبع موز

بدأ سرب الرجال على الكراسي المتحركة يحتل الشارع. طقس يومي شاذ في نهارات الضاحية. يأتون من ناحية النادي القريب. هم أيضا ينظرون كثيراً للطائرات، ربما لأنهم يعتقدون أن السماء ليست بحاجة لسائقين سليمين كشرط للتخليق. يبدون حقيقيين لدرجة مزعجة. أحب كثيراً أن أكتب قصيدة عن رجل على كرسي متحرك يتطلع إلى طائرة. بأذرعهم القوية يدفعون كراسيهم، بينما يسرون في طابور طويل وسط شوارع الضاحية. يزعمون السيارات التي ترتبك فجأة. هنا لن يشاهدوا إلا كائنات تمشي على إطارات. هنا لن يلمحوا ساقاً واحدة تمضي بشجاعة. بدأوا يسرعون من تحركهم ليروا نظرات الرعب في عيون المشاة الذين أخذوا يسرعون بالابتعاد. تلقوا بنشوة سوداء توسلات امرأة عجوز أسرع من خطوها لتتفادى الرعب المعدني. ضحكوا بصوت عال ضاعفه الصدى حين وقعت على الأرض وتبعثرت حبات الفاكهة التي كانت تحملها على الإسفلت.

ينتظرون سقوط شخص لم تسعفه قوته لينجو من مقدمة سيارة مسرعة. يترقبون بشغف ما سيسفر عنه جسده المسجى. لا ينتظرون موته، بل عودته محمولاً إلى بيته لينضم لهم في اليوم التالي صديق جديد.

في أمسياتهم يتحدثون عن الأجيال الجديدة من الكراسي المتحركة تلك التي يمكن أن تطوى حتى تصبح في حجم كف وتوضع في حقيبة يد.. تلك التي تتمتع بسرعات متنوعة، وتلك التي يمكن استدعاؤها فور النهوض من النوم عبر بصمة الصوت.

يتسابقون في المناطق الخالية عند تخوم الضاحية. يغمروهم العرق بينما تنفر عروق أذرعهم. وبالقرب منهم يجلس الأقارب بابتسامات التشجيع المتفق عليها. لا أحد ينتصر، فعند لحظة ما يختل توازن شخص أو شخصين، وتتكوم الكراسي المندفعة عند نقطة صانعة تلاً كبيراً، لتشتبك السيقان مستسلمة. ينقلبون كما يحدث لقطيع سلاحف انقلبت على صدقاتها.

الرجال على الكراسي المتحركة ليسوا دائماً فريقاً واحداً مع ذلك، فمن فقد ساقه في حرب مجيدة لا يمكنه أبداً أن يستوعب أنه يتساوى وذلك الذي فقدهما في حادث طريق عارض. لا يمكن لمن سقط من منطاد بينما يطارد سماءات غير مرئية أن يكون أخاً لعابر التهم القطار ساقه أثناء سهود. أما من ولد بساقين ضامرتين فإنهم جميعاً يتعاملون معه بالحياد الذي يستحقه ضرير ولد في الظلام.

في الليل فقط يجربون النظر إلى أسفل. يلامسون الأرض بأقدام مينة. حتى الدماء التي تنز من أرجلهم عندما تجرحها قطعة زجاج، تبدو غير حقيقية. وعند النوم.. فقط عند النوم.. يتركون نوافذهم مفتوحة على أزيز الطائرات.

هاهي طائرة ضخمة، حقيقية، تدخل أخيراً حيز رؤيتي، تعبر السماء القريبة. تشتبك بطائرة ورقية. يصطدم خيال الطفل القابض على خيطه بحنكة القائد المحترف. يختل توازن الطائرة الضخمة، تبدأ في التأرجح، ثم تأخذ في السقوط. الطائرة الورقية

تَهْتَرز قليلا ولكنها تعود لتعلو ينقطع خيطها وتصبح أخيراً حرّة.
لا شيء سيعيدها لملامسة تراب الشوارع.

في محيط أو غابة.. هناك الآن أشخاص يواجهون رعب
النهاية، وفي نقطة بعيدة من المدينة.. يقهقه طفل.

من نوافذ العمل أمد رأسي لأطل على مدينة تتساوى فيها
الفصول تتوالى دون أن أرى سقوط ورقة شجر في الخريف أو
تستقبل جبهتي قطرة مطر في الشتاء.. دون أن تجبرني شمس
الصيف القوية على التفتيش في الظلال أو يدعوني العساق
الربيعيون للتلصص. تأبى القاهرة أن تعترف بهذه الضاحية كأحد
أطراف جثمانها الشاسع.

لا تزال الطيور جاثمةً بامتداد سماء مبنى المباحث القريب،
الأنيق، ذى المعمار القوطى الرفيع. قطعة داكنة تبدو سماء
مستقلة، يغمرها رفيف ثقيل يبعث على الرعب. لو كانت الطيور
تُبْعَث لصدقت أن تلك أشباحها. سقط طائرٌ منذ أيام بين يدي بينما
أقف في النافذة، وبخفة أعملت فيه مطواتي وقذفت به إلى
الشارع.. وأنتج قصيدة من ثلاثة أسطر أراها من أروع ما كتبت.

لقد حاولوا كثيراً طرد الطيور حتى يستطيعوا رؤية الشمس
وهي تشرق.. غير أنهم عدلوا من تنفيذ قراراتهم حين اكتشفوا
بعد أيام - أن جلبتها عزلت أصوات التعذيب فى الداخل عن آذان
الفضوليين.

يقف جنود الأمن المركزى عند السياج المسور، يقتلهم
الفضول للنظر لأعلى ولا يستطيعون. استبدلت البلدية أكثر من

طاقم منهم بعد أن تزايدت حالات الصمم منذ مجيئها. لا مانع لدى من اقتيادي بصمتي الدموية تتجول على أى حال فى المدينة الآن شرط أن تتزاح الطيور لتعبر صرخاتى ويتعرف عليها المارة. لم يكن الجنود يرغبون فى مشاهدة الشمس ولا شكل السماء. كانوا فقط يريدون التأكد أن ثمة إلهاً لا يزال قابلاً. غير أنهم عجزوا، بعد سنوات طويلة تمرنوا فيها على ألا ينظروا لأعلى. أرى أفقيتهم تتلقى مخلفات الطيور فى استسلام كاره. يرتعشون كلما استقبلوا زخات البراز الرقيقة. أقنعوا أنفسهم بعد فترة وجيزة أن تلك الفضلات الطازجة وخزات أمطار.

صار المكان مثل لوحة مجسمة من أجساد ملايين الطيور، حتى أنه استحالت رؤية ولو ذرة واحدة من لون الجدران الحقيقى. لقد جثمت الطيور على السطح والتصقت بامتداد النباية محافظة حتى على أبسط الانحناءات والبروزات وغطب الأشجار، أما أرض الحديقة فقد اكتظت بتلك التى كانت تسقط فجأة لتحيا لحظاتها الأخيرة.. وباب عادياً للمارة مشاهدة ضباط يغادرون النباية فى مهابة بينما تراصت عشرات الطيور على أكتافهم وأخرى على رؤوسهم، ورؤوس دقيقة مزغبة تطل بفضول من جيوب ستراتهم، كما صار مألوفاً بين الضباط أن يهم أحدهم بالتحدث ليجد سرباً رمادياً ينطلق من فمه.. وكان تأثير تلك المشاهد يتضاعف لدى انقضاء النهار إذ يبدون - لدى خروجهم عند غروب الشمس وسط جيوش الصيحات الرفيعة العدائية

مثل سحرة.. وهكذا رسخت فى أذهان أطفال الصاحبة فكرة أن الضابط هو علبة مليئة بالطيور

لاحظوا بعد أيام أن طريقة تحليقها بدأت تتخذ شكلاً مختلفاً، تحولت إلى ما يشبه سباحة بطيئة لأعلى وأسفل، كأن خيوطاً مخفية تحركها، وكأن كل تلك الجلبة لم تكن سوى مزحة ثقيلة من قوة ما غامضة لا سبيل لمواجهتها.. غير أن ازدحام الطيور النافقة فى الأسفل كان هو السبب فى تأجيل سقوطها حيث لم يكونوا على دراية بطقوس الطيور التى تعقب الموب. لقد ضاعفت من إغراق الحراس بفضلاتها محاولة التخلص تماماً منها.. واندش الريفيون القابضون على البنادق من قدرة كائنات مبيتة على التخلص من بقاياها.. وهكذا حولهم موتها الغامض رغباً عن أنوفهم - إلى حالمين.

بدأ طابور الخارجين من رحلة التعذيب يتحرك مشوشاً، فى الظلال القائمة لآلاف الندوب وتشوش الأعين التى تعودت رؤية العالم من خلف عصابات حين وجدوا فى انتظارهم جمهرة الأشخاص الذين اعتقدوا أنهم جاءوا لاستقبالهم، غير أنهم حين اتجهوا إليهم، لم يُعرهم الخارجون التفاتاً. راحوا ينظرون إليهم كأنهم يتأملون أطلال ملامح قديمة لم تعد تخصهم، قبل أن ينهمكوا من جديد فى مراقبة المشهد الذى سيبقى طويلاً بعد ذلك: بدوا أليفين تماماً حيث لم يعودوا يرون شيئاً بعد أن تكفلت الشمس المخفية بمحو كل صناديق دنياهم.. تتسأل مياه محرقة من عيونهم، غير أنها ليست بكاء.

رأيهم يحدقون بحدقات بيضاء، باهتة. شعرت بهم ينظرون إلى، يروننى قريباً جداً كأنما عبر مناظير مقربة، فأشحت بوجهي، وبسرعة استدرت لألتقط منظاري المقرب الذي كثيراً ما أسلّطه على المدينة، وبمجرد أن وضعته على عيني، اكتشفت أنهم اختفوا.. وأن السماء - في الثواني القليلة التي استغرقتها مغادرتي للنافذة وعودتي إليها - بدأت تمطر.

طالما أخافتني هذه الضاحية رقعة شطرنج هائلة.. شوارعها مستقيمة ومتقاطعة، بلا أسماء. كل شارع تم اختصاره في رقم مكتوب بوضوح على لافتة زرقاء. تقطع الشوارع صفوف أشجار مهذبة متساوية القامات في منتصف كل شارع. آلاف التوائم من الكائنات الناحلة تؤكد التيه. لا زلت حتى الآن أتوه في الضاحية وأضل طريقي إلى الهيئة. فكرت أن أذبح بعض الأشجار لتصير علامات تصنع بعض الفارق ولكنني خفت من عقاب الحي لذلك استعصت عن ذلك بإرسال خطابات يومية للقائمين على "الحي" أستجد بهم وأستجدي عطف قلوبهم الرحيمة.. وفعلت الشيء نفسه مع بعض المجلات والصحف. أحيانا بصيغة المفرد أنا موظف في إحدى هيئات الدولة.. وأتوه يوميا لدى الذهاب إلى عملي الكائن بضاحية "م" لأن شوارع الضاحية متشابهة والأشجار متطابقة في الطول والشكل مما يهدر وقتا ثميناً من حق العمل كما يعرضني لخصومات وحرمان من المكافآت أحيانا بصيغة الجمع نحن أهالي ضاحية م نتوه لدى الذهاب إلى بيوتنا حتى صرنا نفتح بيوت بعضنا

البعض وتبادلها كل حسب البيت الذي يصله أولاً.. وهو ما يهدد استقرارنا العالمي عنهم : س. ع. ل.

أستدعي قصص رعب كثيرة بينما أتطلع إلى القصور والفيلات. حتى أماكن العبادة هنا تبدو _ على حداثتها أطلاً تلتصص من بين غبار أزمنة أخرى. العاصمة بعيدة الآن. المدينة التي تبدو ضخمة تحيا هناك، معزولة ومتوحدة. هنا الضاحية ولا شيء آخر. ماكيت متقن لحلم يقظة آمن.. حيث لن ترى مشجرة، أو بقعة دم تسيل، أو امرأة تبكي بجوار حائط متهذم. لم يأت الشيطان هنا بعد.

صرت أعرف تبدل الفصول من ملابس المانيكانات القابعة خلف زجاج الباتريينات.. تلوح للمدينة. تلك الكائنات البلاستيكية لم تبسم على الدوام ؟.

بذراع مرفوعة وأخرى ملتصقة بالجسد المشدود الوثاق، ويساق مثنية تتقدم خطوات للأمام وأخرى مستقيمة، تتخلف عنها بسنتيمترات. أطراف أصابع القدمين هي فقط التي تلامس الأرض. لا يعنيتها ما يحدث خارج زجاج بيوتها الناصع على الدوام. تعلن تغير الفصول دون أن تعرفه، فالحرارة داخل بيوتها لا تتبدل أبداً. لا يتقلب المناخ. في المساء يملأ المراهقون الشوارع، يعبرون السيارات بيسر، تبدو لهم حيوانات أليفة من المعدن. العجايز يتكئون على الحوائط، لا يغادرون رصيفاً إلا باتجاه رصيف آخر.

الوجوه تلتصق بزجاج الباترينات، تترك أنفاسها: تذكارات كثيفة. تتقابل العيون لوهلة. أيهما في هذه اللحظات يتطلع إلى الآخر؟. في الداخل تتراص المانيكانات النصفية، مثبتة على خوازيق. ليس لها مكان في ضوء الواجهات. تبدو كأسرى حرب عادوا أنصافاً ليطلوا على الحياة بمقدار ما فقدوا. تبدو قانعة رغم ذلك، فلا يجب أن يُطل مانيكان على الحياة بنصف جسد.

كالعادة ترمقني البائعات بنظرة مرتابة لكنها خاوية. يعرفن أن من يطيل النظر هو شخص لا يملك اتخاذ خطوة الدخول. لا أعبأ. أستطيع في شارع جانبي أن أوقف أي واحدة من هؤلاء البائعات وأرسلها للسماء. الأهم أن أفكر في المصير المجهول الذي تواجهه تلك الكائنات البلاستيكية عند موتها.. حين يجيء موعد إزاحتها ليحتل مكانها جيلٌ جديد، بابتسامات أكثر إتقاناً وعيون حرص صانعوها على أن يمنحوها لمحة حياة تبدو حقيقية. إلى أي مقابر تتجه حينها ؟.. وهل تعباً بأن تحمل أخواتها اللاتي بلا أرجل أم تتركها تواجه مصير المفقودين في حرب ؟.

حضرتك بدورٌ على حاجة معينة ؟

تقولها لي البائعة المحجبة التي خرجت إلي عند الرصيف. الزبائن بالداخل قليلون.. لعلها تتسلى، تقتل فراغها بأي شيء. تشبه كثيراً بائعة الورد، ولكنها متعجزة أكثر. هذه فتاة يضاجعها صاحب المحل في المساء. يغلق الباب وينام معها بين أرجل المانيكانات. تنبهت إلى أن المحل لملابس النساء. ما إن تقترب سيدة أو فتاة من الباترينة ويرينني حتى ينصرفن على الفور

مومسات القاهرة خجالات. صفة حميدة على أي حال. كل المانيكانات ترتدي قمصان نوم وملابس داخلية.

فيه حاجة معينة حضرتك بتدور عليها ؟

هههههه.. ذكية.. قحبة مبتدئة. قامت بعملية تقديم وتأخير لتطرح على نفس السؤال. "مطلوب للعمل بالمحل آنسة حسنة المظهر بمرتبة شهري" نظرت إليها، قلت "قديماً جداً جداً يا صغيرتي، لم تكن المانيكانات تسجن خلف الواجهاات. كانت تترك أمام المحال على الأرصفة كأنها تدعو المارة للدخول.. ولكن ذات يوم، بدأ أحدها في التملل.. كان ذكراً وسيقاً يرتدي ملابس السهرة. تحركت ذراعه البلاستيكية نازعة "الجاكيت" ثم "الكرافت" فالقميص الذي كان يسدر على نصفه العلوي. بذراعه الأخرى خلع البنطلون، ثم بدأ أولى خطواته في الشارع الغاص بالبشر.. وما هي إلا لحظات حتى كان قطيع الرجال والنساء والأطفال البلاستيكيين يملأ شوارع المدينة.

في البداية صُعِقَ الناس لرؤية أشخاص عراة يتجولون مبتسمين بوجوه مرفوعة لأعلى، ومر وقت قبل أن يتبينوا العيون الخاوية والابتسامات الشمعية والخطوات الآلية المتعبسة لذلك المارش البلاستيكي، غير أن هذا الاكتشاف ضاعف الرعب.

كانوا يتحركون في هدوء واثق.. ولم يحاولوا تفادي مقدمات السيارات التي اختلت بينما لم يكن سائقوها قد اكتشفوا الخدعة بعد. كانوا فقط يُجِيلون حداثتهم الميتة في الملابس التي طالما

ارتدوها وتغطي الآن أجساداً أخرى، مبتسمين بسخرية من بين شفاههم نصف المغلقة.

لم يستمر الأمر طويلاً، فقد سيطرت الشرطة على الموقف بعد أن حاصرت العربات المصفحة كل مخارج المدينة ومداخلها. تم اقتياد المانيكانات بعدها إلى بقعة مجهولة، ومع مجيء أول دفعة من الأجيال الجديدة كانت البيوت الزُجاجيّة قد أُعدّت. تقول الحكاية يا أختي إن واحداً من المانيكانات ظل هارباً، وفشل الجميع في العثور عليه. يقال إنه ذلك الذي بدأ بخلع ملابسه.. ومن يومها وهو يهيم في المساءات، يقف كثيراً أمام الواجهات، يتأمل أشباهه، ويسأل نفسه غير عابئ بأعين البائعات المتلصصة ولا بأسئلتهن السمجة أيهما الآن هو السجين ؟.

لم يتوقف المطر بعد. هذا جيد على أى حال. لديك يقين ما بأنه في المطر تصير المدينة أكثر صدقاً. الماكياج الثقيل على وجوه العجائز الأرسقراطيات يزول. تعود ملامحهن لتشبه شحوب غرفهن المغلقة. الأشباح تتجول بحرية قادمة من المقابر باتجاه بيوتها القديمة، فالشتاء يعني لها حفلاً تتركياً بلا زمن. الرجال الأقوياء يهرولون متخلصين من هيبتهن المزيفة. نجوم السينما والغناء المعلقون أعليّ البنايات في سجون من النيون يرتدون ملابس صيفيّة دائماً الرجال مفتولو العضلات والنساء عاريات. تغرقهم الأمطار ويبقون مبتسمين مع ذلك. هذه هي اللحظة الوحيدة التي تشعر فيها أنهم غير حقيقيين. الأطفال فقط في تلك اللحظة يكونون أقوياء. يضحكون بسعادة وقد اكتشفوا أن

للسماء وظيفة جديدة. كذلك يظهر كل الوحيديين.. يدخلون وقد أخفت الكوفيات تجاعيد لا تلائم أعمارهم، تغطي نصف وجوههم.. أما البيوت فتشتعل نوافذها بالضوء.. تتطاير من البلكونات والشبابيك رسائل غرامية مكتوبة بالحبر لتسيل الذكريات بين الطرقات.. تدوسها الأقدام. ولأنك قائل شتائي فإنك تعرف أنه في الشتاء فقط يمكن لأي عاشق أن يتخلص من خطاباته الغرامية دون أن يراه أحد.

- تاكس.

زجاج النافذة المجاورة لك في السيارة خريطة مائية معقدة لا تستطيع من خلالها رؤية أي شيء في الخارج، رغم رغبتك المجنونة في ممارسة الفرجة على الناس والبيوت. أنفاسك التي عبأت مساحة الهواء المغلقة من حولك تكاد تلمسها بيديك. تعاندي بدورها، فهي تتجه نحو زجاج نافذتك وتتمدد عليه لتضاعف من استحالة الرؤية. تفصلك سننيمترات عن السائق الضجر. السائقون قنلة بالفطرة. المساحات " تتحرك دون كلل لتزيح الماء عن الزجاج الأمامي.. توأم أسود من العساكر يمارسان عملهما بآلية ونشاط. السائق يُعدّل كل لحظات من المرأة التي تتوسط أعلى رأسكما وكذلك المرأة الجانبية خارج نافذته. تصرفات بلا معنى تقريبا. يريد - ببساطة - أن يصل بك دون أي متاعب أو خسائر، أما أنت فلا تعنيك محطة الوصول في حد ذاتها، لأنك مؤمن أن الكنز هو الرحلة، تلك العبارة التي حفظتها عن ظهر قلب ونسيت قائلها الأصلي حتى صارت عبارتك اللصيقة. بأناملك تزيح

أنفاسك عن الزجاج، ولكن الرؤية تبقى مستحيلة، فهناك جانب آخر من الزجاج، في الخارج، يتلقى الأمطار والأتربة وكل ما يتركه فيه العالم الخارجي مستسلماً. صار لوح الزجاج شخصين إذن.. واحد داخل السيارة، متدفىء مثلك.. يراعه زفيرك الساخن، وآخر في الخارج.. بارد ومهان ومتاح. هل يشعر بأي شيء من ذلك؟. قريبه على الجانب الآخر حيث يجلس السائق ارتاح من هذه المعاناة، فشباكه مفتوح تماماً.. تهب منه الرياح الثلجية. رفض أن يغلقه. فضّل أن يترك كوعه خارج النافذة. هذا جزء لا يتجزأ من شخصية السائق المحترف. أنتما الآن في عالمين مختلفين، كل منكما يعيش مناخاً يخصه. تحاول أن تنتظر للعالم من شباكه ولكنك تفشل، فجسده يعوقك عن الفرجة.. كما أن هذا عالمه هو.. عالمك لا يمكن أن تطل عليه إلا من خلال شبائك أنت.

لا بأس.. ستدخن سيجارة جديدة، وتسأله: "احنا فين دلوقت؟"، وسيجيبك بعبارة ليس لها أي معنى: "خلاص قربنا" أنت أيضاً صرت تائهاً في المدينة التي تحفظ شوارعها عن ظهر قلب.. حياتك ووجودك مُعلقان بالشخص المجاور لك.. أخيراً تقرر فتح شبائك "و اللي يحصل يحصل" متذرعاً بأنك ستقف بالسيجارة إلى الخارج.. ولكنه - بوجدان المختطف المحترف - يأمرك: ما فتش الشباك.. مزيحاً مطفأة السيارة إلى الأمام: طفي سيجارتك هنا!.

يبدأ الشك يساورك حياله. كان حميماً حتى اللحظة التي أدار فيها "الكونتاك" وأراح كفه اليمنى على "الدريكيون"، بعدها صار حفنة من الأعضاء يعمل كل منها منفصلاً. عيناه على الطريق. قدماء واحدة على "الفرامل والأخرى على "البنزين" يده اليسرى تقوم بمهمتها على أكمل وجه، منهمكة في إشارات للسيارات التي خلفه وتحيات عابرة لأمناء الشرطة. فمه يوجه شتائم بذئنة لسائقي الميكروباصات وللعابرين المسرعين أمام السيارة. تكتشف أنكما لم تتبادلا النظرات منذ انطلق بكما السيارة. تشعل سيجارة جديدة وتقرر أنك لحظة نهايتها ستفتح شباكك لتقفز بها.. لن يستغرق الأمر ثوان ولكنه سيكون كفيلاً بأن تعرف أين أنت.. ولتعود لمشهد المدينة الغارقة في المطر الذي تحبه. ستستقبل الزخات المنطلقة بشكل مائل على وجهك.. وتمد كفك بنزق لاستقبالها.. نعم.. سأفعل، وإن رفض أو فتح لي المظفأة من جديد سأقول له عبارة واحدة بنفس طريقته الميكانيكية نزلني.

تلتهم الأنفاس بنهم، تعمل بدأب على إنهاء عمر سيجارتك.. أخيراً تصير مساحة البياض أقل من مساحة "المبسم البني" تتناقص أكثر.. أنت تكملها تماماً رغم أن هذه ليست عادتك، تحتمل احتراق شفتيك مع الأنفاس الأخيرة كأنك تريد أن تثب له أن السيجارة قد انتهت فعلاً، وأن كل ما حدث لم يكن مجرد تمثيلية منك لترجيح الزجاج.. تقترض أنه سيوجه لك أسئلة حاسمة ستنتهي بإدانتك حتى تعترف بأنك كاذب، لعله كان يلحك بطرف عينه، يراقب يدك المرتعشة المتعجلة وطريقتك الساذجة في نفث الدخان. أخيراً كف يدك اليمنى تقبض على "الأكرة"، أنت لن

تستأذنه هذه المرة، سيبدو الأمر عفويا. جثة السيجارة لازالت بين
إصبعيك تنتظر تحليقها في الريح.. مع التوقف المفاجيء للسيارة،
وصوت السائق الذي عاد فجأة لنعمته السابقة - يخبرك بأن
الرحلة قد انتهت.

أقتحمت هناك حياتي في لحظة غامضة.

كنت أقف في المقابر، أراقب نزول جسد "سلمى إلى التراب.. محاطاً بأفراد أسرته الذين لا يعرفون شيئاً عني ولا عن سبب وجودي أثناء "دفنة" ابنهم. كنت كل دقائق أمسح خيط دموع جديد من تحت نظارة الشمس الرخيصة: القناع الداكن المبتذل الذي اشتريته قبل الذهاب. لم أكن أفكر في إخفاء دموعي.. كنت فقط أريد أن أخبئ عينيْن جميلتيْن بَدَأَ حياتهما، كما عرفت دائماً، في هواء الموت.

في محل الورد نظرت لي البائعة المحجبة بعداء، وتركت المصحف المفتوح، وقالت ببرود السجارة.

فهمت أنها تطلب مني إطفاء سيجارتي، خاصة وأن عينيها لحظة نطقها بالكلمة توجهتا مباشرة لعلامة ممنوع التدخين المثبتة أسفل آية الكرسي. وكما هي عادتي حين يُطلب مني ذلك، التهمت ثلاثة أو أربعة أنفاس متلاحقة قبل أن أمد يدي بها للمطفأة. كان ذلك في الحقيقة أسوأ مما لو تركتني أأخذ، فقد صار المكعب الزجاجي سحابة من الدخان. كل السجائر في المطفأة تكاد

تكون مكتملة. أطفالها أصحابها مبكراً جداً، قتلوها في مهودها،
ابتسروا حيواتها، امتثالاً لأوامر الفتاة المحببة ذات الوجه الحنطي
المشعر
أأمر.

عايز ورد.

عايز نوع إيه؟

كانت تنظر لي بتشكك، وبطرف خمارها غطت أنفها كي لا
يصلها عطري النفاذ. تتحاشى الخطيئة. لو خلعت النظارة السوداء
- كما في الأفلام الخيالية الرخيصة- سترى عيني البنيتين
حدقتين بلون الشاي، لتبدأ بهدوء في فك ملابسها قطعة قطعة، قبل
أن تستلقي على المكتب، رافعة ساقيها وتقول بسرعة ونهم
- ياللاً بسرعة قبل ما يبجي صاحب المحل.

يعبر الناس المحل، يرون رجلاً يضاجع فتاة على مكتب
خشبي، ولا يعلقون. يظنونهم حلم يقظة في صباح مترب. بعدما
ننتهي، تلتقط سيجارة من علتي وتبدأ التدخين، ولكنني أصفعتها
على وجهها بقوة، قائلاً السيجارة. وتنظر إلى لتجد عيني
الجميلتين تتأملان الستكر المثب على الحائط.
- مش عارف إيه النوع بالظبط.

بضجر ونفاذ صبر قالت

يعني المناسبة إيه؟

- جنازة.

شُحِبْتُ قليلاً. يبدو أنها ظننتني في البداية أريد ورداً لعشيقته
تنتظرني أمام باب سينما.
ثانية واحدة.

قالتها كمن يشاطر شخصاً أحزانه بإخلاص، واتجهت لغرفة
داخلية عبر باب زجاجي ظننته في البداية مرآة. بعدها أتت لي
بزهور صفراء وبفسجية. اعتبرت ما حدث إيداناً لي بأن أدخن.
لم أكن بحاجة لسيجارة ولكني كنت أريد أن أعرف هل
ستغاضى عن سيجارتي الثانية، لأكون أول زبون يكمل
سيجارة هنا؟.. أم ستخبرني بحسم، وللمرة الثانية، لكن بهدوء أكثر
ربما، لو كانت متعاطفة، أو بعصبية أكبر، لو شعرت أنني غبي
أو أعمل على ابتزازها عاطفياً لو سمحت السيجارة.. كلنا مات
لنا ناس.

لو تركتني أكمل السيجارة سيأتي زبون أثناء وقوفي، سيخرج
من عليه سيجارة ويطلب مني "ولعة"، سأمنحه سيجارتي،
وسيردها لي شاكراً. ستقول له الفتاة
السيجارة.

في هذه الحالة لن يفهم معنى الإشارة، وسينظر بطرف عينه
لسيجارتي التي أوشكت على الانتهاء، قائلاً
- مالها؟

- ممنوع التدخين.

- ما الأستاذ بيدخن.

- ده عنده ظرف.

بهذوء قالب لي الفتاة السيجارة "، بينما انهمكت في وضع
الورود داخل بوكيه "، وبدأت تعمل بالمقص على تهذيبه وتحكمه
بشرائط سيلوفان نحيلة، سوداء.

دفنت السيجارة بجانب أختها في المطفأة.. بعد أن التهم
منها.. مثل المرة السابقة.. عدة أنفاس سريعة وعميقة. بعدها تناولت
السيجارين ووضعتهما بجانب بعضهما على سطح المكتب.
اكتشفت أنهما متساويتين تماماً. نظرت الفتاة إلى شيء من
التوجس ولكنها لم تعلق. كنت مندهشاً جداً، فقد فشلت في إيجاد
ولو ملليمتر واحد يفرق إحداهما عن الأخرى.. ولم أعد أعرف
أيهما دخنتها أولاً وأيهما كانت الثانية. ربما لهذا السبب فكرت في
إشعال سيجارة ثالثة، لتأمرني بإطفائها، لألتهم عدة أنفاس،
لأضعها في المنفضة، لأخرجها، لأكتشف أنها متساوية مع أختها.
وهكذا.. غلبة سجائر كاملة أكتشف مع تكرار الموقف، وبإعادة
السجائر المبتسرة إليها، أنها تحتل صفين متساويين، كأنها صنعت
هكذا. معجزة سرية يا أختي.
انفضل.

منحتني باقة الورد وهي تهش بيديها على أنفها، لا أعرف
هل بسبب سحابة الدخان التي تحمل أنفاسي في سماء المكعب
الزجاجي أم بسبب عطر هوجو النفاذ الذي يغرق جسدي
مدعوماً بمزيل عرق أكس على جسدي الموشوم وبجيل "بالمر
الثقيل على شعري الغزير الثقيل الناعم؟
كام ؟

اثنين وثلاثين جنيه إن شاء الله.
مددت يدي بأربعين جنيهاً، ورقة بعشرين وورقتين
بـ "عشرة"

- ما فيش فكة؟

قالتها وهي ممسكة بورقة بـ "عشرة" بعد أن وضعت
الجنيهاً الثلاثين في درج المكتب.

لا والله.

- خلاص يبقالي.

ومدت يدها بها لي.

تمنيت في هذه اللحظة أن أقول لها: طيب هاتي الجديدة
وخدي القديمة.

الفتاة بخبت شديد - وربما أيضاً دون أن تقصد وضعت
الورقة الجديدة الملساء في درج المكتب، وأعادت إلي الأخرى،
القديمة المهترئة، التي دسستها بين الورقتين كي لا ترفضها أو
تنبيه لها. أفعل ذلك دائماً كلما اشتريت شيئاً وكذلك في
المواصلات العامة.. كأن من أعطيه النقود لن يعدها ويئلمسها
ورقة ورقة.. أو كأن وجود ورقة جديدة مصقولة سيشفع لوجود
جارة مهترئة.. مبدولة. وربما قصدت الفتاة أن تطلعني على
عورتي التي أردت مداراتها بأن ترد إلي بضاعتي الفاسدة وتقول:
فأفاساك.

- جديدة إيه وقديمة إيه ؟

انتبي هتعرفي تضييعها وبعدين هيئه مش قديمة قوي.
يعني .. شغالة.

- مش كفاية سبتك اتنين جنيه؟ ده الحاج ممكن يخصمهم
من شهريتي.. مانا كنت ممكن الطعك وألف بيها علشان أفك
واديلك الباقي.. أو ادبها لك انت تفك واخللي الورد هنا لغاية ما
ترجع.. وهتلاقي كل الناس قافلة.. وحتى لو لقيت حد فاتح مش
هيرضى بفك لك.. توكل على الله يا أستاذ.

أحجمتُ عن أن أضع نفسي في مخاطرة من هذا النوع. كنت
أحتضن باقة الورد شاردا. عادت الفتاة لمصحفها الصغير. مهمتها
انتهت. لا يهمها أن أنصرف أو أظل واقفاً بجوارها للأبد. المهم
الآن أدخن. بدأ صوتها يرتفع بالتلاوة. جسدها يتحرك بطريقة آلية
رتيبة للأمام وللخلف. تتحني تماماً على الكتاب حتى يكاد رأسها
يلتصق به ثم ترتد للخلف ليلامس ظهرها الحائط. فتاة موجهة. مد
وجزر. اكتشفت لأول مرة أن هناك حذبة كبيرة أسفل عنقها. هذه
الفتاة لم تفارق هذا الكتاب منذ ولدت.

يدي اليمنى متوترة، مُهتاجة في قفازها. قبل أن تعيد إلى
الفتاة الورقة النقدية قرأت بإمعان شيئاً ما مكتوباً على وجهها،
وتأففت. بدوري نظرت للورقة مركب شراعها على شكل قلب،
شفتين سهم يشير للعليا بالحرف R وسهم يشير للسفلى بالحرف
L. وكلمات حب لا تفرطي في هذه الذكرى للأبد يا توأم
الروح والجسد . كيف لم ألاحظها؟

يدي اليسرى أيضاً ارتخت، خملت كامراً في وضع مُداعبة. وجذتني أعود فجأة لذلك الصباح الخريفي البعيد.. حين امتدب أناملّي المرتعشة بورقة نقدية إلى فتاة، كنب أحب وجهها، وأحب أن أراه، ولا أحب أن يراه الآخرون!. الجنيه الوحيد أخرجته يومها من يَمِّه في جبّبي.. وكتبّت على أحد وجهيه عبارات حب لا أذكرها الآن، أو لا أريد، وقُعت تحتها باسمي. ذلك الذي ظننت حينها أنني أعرفه وتركته بين يديها المُرتبكتين. كانت محبتي تنام على تفاصيل المُنذنة المشهورة. تخفي ملامحها في تضاريس ورقة العُملة تاركة البطولة لملامحي. غير أنني لن أنسى صباحاً آخر.. غامت خرائطه الآن ووهنت حدوده.. حين وقعت المعجزة السرية الصغيرة. كانت يدُ البائع تمتد إلى بالجنيه نفسه. بضاعتي رُدّت إليّ في وهلة.. والتذكّار الذي اعتقدته سحياً خالداً في حقيبة يدها، لمحت عليه آثار الأنامل التي تداولته.. حقرت فيه روائحها وتركته هائماً، كورقة شجر ضالة في هواء معتم.

تململت يدي اليُمْنى، وغضبت، حتّى أنني اضطررت لتوجيه صفعات قاسية لها من يدي اليسرى.. التي كانت ترتعش بدورها من الحنين لكتابة قصيدة رومانتيكية لم أكن بالطبع. لأسمح لها بها.

- فيه حاجة ؟

قالتها الفتاة التي انتبهت على شجار يديّ الغريب، وبدأت تنظر لي في خوف.. بينما كنت قد فقدت القدرة على التحكم

فيهما، فقد تشابكتا والتحمنا في نزاعهما. قام الفتاة مرعوبة وأخذت تقرأ المعوذتين. قلت لها ما فيش.. أنا تعبان شوية.

عندما التقطت يدي اليمنى المطواة من تحت القميص، لتطس بها اليسرى، جحظت عينا الفتاة، وقبل أن تكمل صرختها كذب أعبر بها الباب الزجاجي، يدي اليسرى محكمة على فمها.. وباليمنى وجهت لها طعنات نافذة في قلبها. سقطت جثة هامدة، ولاحظت - لأول مرة - أنها ترتدي دبلة ذهبية نحيفة جداً في يدها اليمنى. خرجت بسرعة. هدأت يدي أخيراً، خرجت إلى الشارع حاملاً الورد الذي التقطته من على المكتب، وتركت الباب الزجاجي يهتز خلفي، بعد أن قلبت، بخفة اللافتة البلاستيكية المكتوب عليها "مغلق للصلاة"، بحيث تصير في مواجهة المارة. أيقظتني اليد الأنثوية من غيابي، ربتت على ذراعي "انت سالم؟" أو مات موافقاً، قبل أن تقول صاحبة اليد: **أنا هناء**. في تلك اللحظة أدرك كلانا أن لقاءه بالتاني جاء متأخراً جداً.. وربما في الوقت الذي لم يعد لأي مناه فيه فائدة للآخر، أو هكذا ظننت.

كانت سلمى تحدثني كثيراً عن هناء، صديقتها "الأنثيم"، والتي ظلت دائماً طرفاً غائباً في علاقتنا.. اسماً بلا وجه، ولافتة دون جسد أعرفها - فقط في الظلال الشاحبة لصوت سلمى.

لم أرها أبداً، رغم أنني تعرفت على صديقات عديدات لسلمى في مناسبات متفرقة. سلمى لم تطلعني حتى على صورة لهناء، حتى أنني تعودت أن أسألها بين الحين والآخر، مداعباً "هنا هناء دي موجودة فعلاً ولا شبح؟" كل ما عرفته عنها أنها

صحفية، مشغولة دائماً، مطلقة وهو ما كوّن لدي انطباعاً أولياً بأن هناء شخص خطر. ظلت هناء دائماً هناك، بعيداً، ولم أحاول أبداً أن أسأل عنها بجديّة أكبر.. رغم أن تفاصيل نافهة كثيراً ما استغرقتني في رحلة تعرفي على سلمى، التي كانت دائماً بالنسبة لي عشيقّة غامضة.. والتي جاء موتها المفاجئ ليوقف كل شي كنهاية مبكرة، لا معنى لها. نهاية شعرت بها موجهة، بالذات، لي.. رغم يقيني أنها كان لابد أن تحدث.

يبدو أنني كنت نفس الشخص بالنسبة لهناء: حبيب صديقتها الذي يعيش بينهما طوال الوقت كحلم يقظة.. والذي عرّفت عنه هناء أشياء كثيرة حتى أنها لم تجد صعوبة في التعرف علي فور أن رأتي ألحاق هواء ظهيرة الأمس، الترابي، الكثيف والمتوحد. انجذبت لهناء في ذلك اليوم بشكل غامض، لم أكتشفه إلا بعد ذلك بساعات، قبل النوم، حين ضبطت نفسي متورطاً بالتفكير فيها.. وليس في سلمى. كان المشهد في عيني هو هناء: الفتاة ذات الشعر القصير الأحمر، التي منح الوداع ملامحها لوناً غامضاً. الفتاة التي عبرت قماش قميصي الداكن وقرأت - كما خمنت - كل سطر ونقش يحمله جسدي.. والتي توقفت دموعي فجأة بمجرد عبورها.. وظللت حتى مغادرتي وحتى الآن أسأل نفسي: كيف فاتتني لعامين كاملين هما عمر علاقتي بسلمى أن أطلب رؤية هناء؟

توقفت أمام النتوء الصخري الهائل، ومنحت سائق التاكسي الضجر كل ما في جيبك من نقود. لم تعدّها. هذا رزقه ونصيبه وأنت هنا لا تحتاج مالاً. المولد في قلب الجبل الراسخ طقس محاط بالحجارة. تختار ركناً وتستريح إليه. تجلس بشعرك المحلول ولحيّتك المتروكة التي أثارت انتباه زملائك في العمل والعُداًدين في المدرسة. بعد قليل سيبدأ الجنون. كل الأرواح المعذبة هنا. الدم المسفوك مباح.. وأنت حر. يداك مشهرتان. صرختك ضائعة في صمت الحشود. جسدك الموشوم يراه الله ولا يسبر تعاليمه فان. أظافر يديك مشطوفة، جارحة.

تمتد إليك يد فتاة ب سطل لبن، تقول لك يا شيخي تشبه فتاة في المدرسة تقول لك يا مستر غلامية هذه البنات. الخيط السميك الأبيض يسيل من بين شفّتيك.. وتحت الأحجار المتهدمة عند نخوم المكان تدس مطوانك فيها لتكتمل سكرتك. الدم المُهدر تتجرعه الأرض ذات الحصى الصغير المدبب الجارح.. يوقظ خطوات الأنبياء ويردد في أذنيك وقع أقدامهم المفلطحة

المشقوقَة. آثَارُهَا محفورة لا تزال في كل شارع. تعبِرها يومياً
بحذاءك الرياضي المريح. الناسك يحيا هنا في ركن. أين أنت ؟
ظننت الفتاة أن عضوك هو نصلك الوحيد، أن دم بكارنها آخر
ما سينفقه جسدها من خسارات. تركتك لجسدها.. للحمها الحي.
أنت الملتحي ذو الصفائر الذي رأته وجهه بعيون مينة في
مناماتها. تركتك تسحب عنها ملاءتها السوداء. قطعة قماش واحدة
تغطي عورة هائلة، بينما تهتز أنت يُمنة ويُسرة مُعلق العينين،
لترى. حي. تُقبّل يديك المقدستين. تحل أنت صفائرها لتصير
امراً.. وتجدل هي شعرك السائل في صفائر لتكتمل قداستك.
قبلتك على شفيتها.. لا بد أن تكون صاحب آخر شفيتين تتذوقهما
في حياتها. لا يُقبلها رجلٌ بعدك. لعابك الدموي يرمح في ريقها.
سمك في لسانك تتهاجم.. ومطواتك في قلبها الذي لم يعرف
الحب. قررت هذه المرة أن تغور بالمقبض الخشبي وليس النصل،
تريد أن تجرب طعنة الخشب العتيق في جسد شاب. الفتاة التي
تعبّر منامات يقظتك كشبح تتحسس الآن جسدك الموشوم، تعلق
أبيات الشعر والأيقونات. بيديها المشعرتين تنزع حفنة من شعر
عانتك الهائش، وتستسلم أنت رغم ألم الاقتلاع الخفيف.. ثم تنزع
من شعرها خصلات مصبوغة، تكتم أنفاسها كي لا تفلت الشهقة
بينما تشعر أنت بألم انتزاعها المر من المتنب. تمزجها الفتاة
وتضرم فيهما النار. تجرب اللذة معك في قلب الجبل.. في الشفق
الذاهب إلى الزرقة كذوابة خيط لهب.. بينما الدفوف والمزامير
و"الصاجات في الخارج تعلن أن الله قريب جداً. يتطلع الفقراء

لأعلى ولا ينظرون باتجاهك. تتوقف السيارات الفارحة بهدير
خافت كي لا تقصد صلاتك.

تنتهي منها. تتركها جثةً عارية تحرق لأعلى. تجرّدها من
جلبعتها التي غلفت المضاجعة القرطين المعدنين في أذنيها،
حولهما دم دقيق متيسر.. الحلي البلاستيكية الملونة في رسغيها
النحيلين أحمر وأصفر وأزرق وأخضر. تخلصها من فردة
الخلخال الرخيصة في ساقها اليسرى.. ضاقت على اللحم حتى
صنعت فيه طوقاً أبدياً.. ومن الشبشب البلاستيكي ذي الإصبعين
الذي رفّضت تماماً أن تخلعه بينما تريح ساقها على كتفك لتسيل
التحايا من شدّيك على جسدها المزغب. أنت قبّلت فرجها. لم
تصدق.. وفتحت عينيها على اتساعهما لترى الصلوات تعبر
جبهتك كسحابات.

ما بين مُعْتَرَكِ الْأَشْوَاقِ وَالْمُهْجِ

أَنَا الْقَتِيلُ بِلَا إِيْمٍ وَلَا حَرَجٍ

وَدَّعْتُ قَبْلَ الْهُوَى رُوحِي لِمَا نَظَرْتُ

عَيْنَايَ مِنْ حُسْنِ ذَاكَ الْمَنْظَرِ الْبَهْجِ

وَأُضْلَعُ نَحَلْتُ كَادَتْ تَقْوَمُهَا

مِنْ الْجَوَى كَبْدِي الْحَرّاً مِنَ الْعُوجِ

في فمها رائحة حلوى رخيصة، بمذاق الموز. لا تزال شفتاها
محاطتين بأثرها اللاصق الصمغي، اللزج. مُسْتَحَمَّةٌ بصابون نفاذ
رخيص أيضاً جعل شعرها - مع الحناء - متيسراً. نهذاها صلبان..
وشارب خفيف فوق شفتها العليا، المشقوقة، الداكنة.

أرى الطائرات الورقية من هنا. ذات صباح قتلت طفلاً فوق
سطح وكتبت على "جلاد" طائرته المزجج الشفاف سطرًا رانفًا.
حي. الطائرات فوق الناطحة الزجاجية هناك، بناية المرايا
المتقابلة التي يتضخم فيها وجه المدينة وتبرز عظام وجنتيه. فوق
أوثان المدينة الصدقية.. الإسمنتية.. المعدنية أرواح قريبة منه..
هو الذي يعرف.. ويدرك.. ويتألم.. ويرى.

و أدمع هملت لولا التنفس من

نار الهوى لم أكد أنجو من اللجج

أهفو إلى كل قلب بالغرام له

شغل وكل جفن إلى الإغفاء لم يعق

لا كان وجد به الأماق جامدة

ولا غرام به الأشواق لم تهج

من مات فيه غراماً عاش مرتقياً

ما بين أهل الهوى في أرفع الدرج

كفك اليمنى عارية.. لن تدثرها الآن. يدك اليسرى مبردة.

كلاهما هائمتان.. تتطوحان مجنوبتين. تتسلل الروح من أطرافهما
وتنحل خطوط طالعهما. تصيران بترين خاويتين ترى فيهما كل
شيء ما عداك.

الدم على مقبض مطوانك لا يغسله ماء. نقاط الحليب التي لم
تجف بعد في فمك تتساقط بطيئة عليه.. القطرة تلامسه بعد دهر.
يتحول إلى اللون الوردي على الدكنة البنية للمقبض. << يا من
تلوثتم بدماء القلب.. كالوردة >>. تجويف الجبل معتم. حجر

سحيق يشد القاهرة كلها.. ببقياها.. يرسياها.. يرسخ فوق الأنفاس
الهشة المؤقتة. المدينة ماريونيت مشدودة بخيوط واهنة إلى صخر
مطعون. أحشاؤها القطنية هنا. تعمل نصلك في ركن، تترك ذكرى
في جثمان الصخر الرمادي الضارب إلى الخضرة، ثم تقطع نقة
من الحجر وتضعها في فمك.. تبتلعها. صار الجبل في أحشائك.
منذ قليل، قبل أن تقود الفتاة للداخل، رأيت وجهك في ماء "الزير
تعيد دوائر الماء خلقه. ودست يدك، ابتل طرف كمك.. وخرجت
بعملة معدنية صدئة، عتيقة. ضغطتها بين أصابعك فالتوت.
تعيد الفتاة لملاءتها السوداء التي لم ترتد تحتها طيلة أعوامها
الثلاثة عشر سوى جسدها. كفن داكن معروق يلائم هائمة لم تتعر
سوى لك. سيعثرون عليها بعد أن ينتهي كل شيء. لن يلحظوا في
باديء الأمر سطور الدم الداكن، المقيى، على عبايتها المظلمة.
لكنني اطمأنتت لأن على الأرض، بجوار جسدها، علامة : لا خير
في الحب إن أبقى على المهج.

يقولون إن لا أحد يُقتل مرتين على يد نفس الشخص، غير أنني لم أصدق ذلك أبداً. حين صعدت السلالم بخفة وجدت باب شقة "سلمى موارباً كما اتفقنا. يبدو مغلقاً غير أنه في الحقيقة موارب. تكفي دفعة خفيفة لينفتح على الصالة شبه المعتمة، التي يخترقها ضوءٌ خافت قادم من أباجرة في الركن. سلمى تموت من الرعب بينما تجلس في سريرها عارية، ليس لأنها تعرف أن طعنني ستنفذ في قلبها بعد قليل، ولكن خوفاً من دخول غريب: لص ممن يؤرقون هدوء الحي الراقي كل فترة ويكون ضحاياهم في أغلب الأحيان - سيدات في منتصف العمر. تخاف سلمى أن يقتلها عابراً ضد إرادتها، دون أن تكون اختارته.

بالأمس قتلت سلمى أيضاً، وبفس الطريقة. طلبت منها أن تترك باب شقتها موارباً لأنني لا أملك مفتاحاً ولا أريد، ولأنني سأموت رعباً في المسافة بين ضغطتي على الجرس ومجيئها عبر الشقة الواسعة لفتح، ولأن التفاصيل الكثيرة هي التي تقود دائماً للقنلة. إن كنت قاتلاً متسلسلاً من النوع النموذجي وهو نادر على أية حال، وربما كنت أنا آخر عباقرته - فأنت بالضرورة

تعرف أن الوقت المستغرق بين عبورك عتبة عمارة، وتتيل مُبَيَّت ينتظرك في شقة بالدور الرابع كما هو الحال مع سلمى لا يجب أن يتجاوز العشرين ثانية. حتى إن وجد "أسانسير" كما هو الحال هنا أيضاً عليك أن تتجاهله تماماً. السلام أكثر أمناً كل ثلاث سلمات في قفزة واحدة. جئى لو نجح العملية لن تسامح نفسك إن أنت استغرقت زمناً أطول.

بالأمس وكما سيحدث بعد قليل أرحب الباب بهدوء، بكوع يدي اليمنى، وأغلقت خلفي، بكعب حذاء قدمي اليسرى. جاءني صوت سلمى بهدوء مصطنع، بهمس الفريسة المرتعدة البعيد: "مين؟" وأجبت "أنا" وفي الغرفة سالت الدماء من شفتينا في قبلة طويلة، هي قبلتنا الأولى، والتي لم نحظ بها أبداً رغم ليالي المضاجعة المديدة. بعدها امتدت يدي اليمنى المتدثرة بجوانتي قطيفي قائم الخضرة - بالمطواة إلى قلبها.. لتسقط سلمى قتيلة تحت قدمي.

اليوم سنكرر ما نجحنا فيه بالأمس، رغم أن سلمى الآن ميتة. جسدها يرقد في مقبرة، بعد أن أنهى زوجها ضابط المباحث إجراءات تشريح الجثة بسرعة شديدة، مُسدياً لها خدمته الأخيرة. كانت شاحبة الآن، ليس بفعل الموت، لكن لأنها كانت تفكر: هل سيكرر زوجها اليوم - بدوره - ما فعله بالأمس، بالإخلاص ذاته؟.. أم سيفتح تحقيقاً واسعاً هذه المرة، لتنتصر غريزة رجل الأمن التي هزمها التراب أمس.. وقد خلصته دموع ميتتها الأولى من كل حنين طارئ؟. كانت خائفة اليوم، خشية أن تبين هذه

المرّة في الثلاثيّة الضخمة انتظاراً لدورها في التّشريح.. كما كانت تتّوجس من الحقيقة الأكيدة بأن تكرار الميّة بطريقة واحدة ليومين متتاليين لن يكون أبداً حدثاً عارضاً من لص متبطل تجاه امرأة أربعينية ثرية. كما نشرت الجرائد الرسمية صباح اليوم بإعزاز من زوجها بل سيؤكد بحسم، أن الفاعل عشيق. على أية حال لا أملك وقتاً كافياً لمناقشة تلك التفاصيل، خاصة وأن سلمي الآن ميّة. إنني حتّى لن أسألها عن هناء التي تعرّفت عليها بالأمس للمرّة الأولى ولن أعاتبها لأنها أخفت وجهها عني كل تلك الفترة.

مثلاً فعلتُ بالأمس، تناولت إصبع "الروح" المنتصب على "الكومودينو" لونه نحاسي، من نفس اللون الذي على شفتي سلمي، والذي يلائم بشرتها الخمرية بينما يبدو بلا أثر على بشرتي البضاء. لو كنت امرأة لاخترت "الروز البيّنك" لوناً أبدياً لطلاء شفتي. لونت شفتي بدقّة وحرص. ضممتها على بعضهما ثم فردتهما، مططتهما بتلك الطريقة الأليفة لامرأة أكيدة، وتركب لساني يتذوق طعمهما الجديد المحبب. تمنيت دائماً لو كان "الروح" طعاماً، نوعاً من الفاكهة، أو حلوى رخيصة. أشعلت سيجارة.. التهمت منها ستة أنفاس طويلة متلاحقة قضت على ثلثيها بينما أنظر للنافذة العريضة التي تتسلل عبرها المدينة ثم أطفأتها في المنفضة الخالية، النظيفة.

سيجارة الأمس أخذها الطب الشرعي، والذي خمن مبدئياً أن القاتل صديقة لسوسن كانت تربطها بها علاقة شاذة. لم أفكر

بالأمس أن تلك الصديقة يمكن أن تكون هناء نفسها. سيدعم ذلك وجود عضو ذكري من المطاط كانت سلمى تستخدمه في لحظات وحدتها، وطلبت منها أن تستخدمه لنصف ساعة قبل مجيئي وتتركه على السرير بحيث يكون، مع إصبع الزوج، أول ما يتم العثور عليه والالتفات له على طريقة التحقيقات البلاء. بعدها سينتبهون لسطر شعري مكتوب بدم الضحية على ملءة السرير. سيظنون أنه في بادئ الأمر، بالبلاهة المتفق عليها - دم بكارتها أو دماً متسرباً من جسدها القتل. لن يكتشفوا اللوثة الأولى، مع تجاعيد الملءة الخفيفة، أن شاعراً ترك نفسه هنا على يد قاتل شاب.

اليوم.. هناك إصبع "زوج" آخر، وعضو ذكري آخر، وامرأة أخرى، ونفس القاتل.

استبعدت التحقيقات المبدئية بالأمس أن يكون الفاعل لصاً، لأن شيئاً من مجوهرات سلمى أو محتويات الشقة لم يسرق. الجرائد الرسمية لم تذكر ذلك.. بينما بالغت الجرائد الخاصة فيه.. مؤكدة أن القتيلة كانت متعددة العلاقات النسائية، ومعروف عنها ميلها للسحاق.. وهذا أحد أسباب توتر علاقتها بزوجها. كلاهما يكذب. سلمى لم تكن أبداً سوى كلبة نموذجية للرجال، ولم تحصل أبداً على قبلة من امرأة. حتى القبلات البريئة لم تحصل عليها. حتى أمها لم يعرف جلدها أبداً ملمس لعابها.

قبلتها قبلة الأمس، وطعننها بنفس الطريقة. كل شيء تم بدقة إله. ومثلما حدث بالأمس، نظرت في ال ستوب ووتش مع أول

خطوة لقدمي بعد انحرافي عن ناصية الشارع، وتأكد أن المسألة كلها منذ دخولي الشارع وحتى خروجي منه لم تستغرق سوى ثلاث دقائق، بالضبط، كما حدث أمس.

إذا سألتني ليل بينما يرى مطواتي المشهورة، تهتز في
الهواء المواجه لعينيهِ كعقرب ساعة لماذا تقتلني؟ .. سأقول له
بلا تردد لا أعرف.

أنا مؤرق. استيقظت على يديَّ هائجتين. نهشت اليمنى
اليسرى أثناء نومي. كادت أن تقتلها، استيقظت على دماها
الغزيرة.. مطعونة في أكثر من موضع. رغم ذلك لم يوقظني
الألم، بل حلم غامض رأيت فيه "سوسن"، جارتِي، المرأة
الوحيدة الطاعنة، تلقي بنفسها من شرفتها.. ولكن الهواء.. وبدلاً
من أن يسقط بجسدها إلى الإسفلت حملها باتجاه شرفتي حيث
حطمت النوافذ لتموت على سريري. استيقظت مبتعداً.. لاكتشف
أن زجاج النوافذ مهشم غير أن هناء لم تكن على سريري. وجدت
يدي اليمنى قابضة على المطواة، تكيل الطعنات لأختها. كيف أتت
بها؟!.. هل تحركت بجسدي إلى الصالة وتناولتها من الدولاب
العتيق ثم عادت بجسدي إلى السرير؟ هل تقودني يدي إلى هذا
الحد؟.. اليسرى أيضاً فعلت شيئاً شبيهاً. أتت بأوراق بيضاء من
درج المكتب وانشغلت بالكتابة بدماها.. بدماي. استيقظت على

هذا المشهد القاسي.. ولكني لم أكن أشعر بألم، كأن هاتين الأختين ليسنا لي. ذات يوم ستأمران علي.. سأكون أنا القاتل تقتلني اليمنى وتكتب اليسرى بدمي. اتفاق ممتاز.. بدلاً من الشجار اليومي. لعلهما ستشعران ذات يوم أنني أب يفرق بين ابنتيه.. وأن الحل كان أمامهما طيلة ثلاثين عاماً وأدارتا وجهيهما عنه بنبل غير مبرر. غير أنه، لو استبعد هذا الاحتمال، بتغذية الوقيعة بينهما.. بتفضيل واحدة عن الأخرى.. فإن إحداها ستتصر ذات ليلة. ساستيقظ بيد راحلة. لا ترالان تتساجران، والملاء غارقة في الدماء وأنا أتفرج عليهما. للأسف.. لا أملك يداً ثالثة تتدخل لفضهما. أي عضو في جسدك يمكنه أن يتدخل لفض مشاجرة بين يديك!؟

هذه مطواة ليل"، مطواتك يا شبيهي وشريكي في نصل واحد. مطواتك يا من يجب أن يغيب لأشرق وحدي. اشتريتها يوم حصلت على مخطوط الناسك شيخي ودليلي. اسمك يا ليل محفور في خشب مقبضها العتيق العامر بالنقوش وكذلك في لحم سلاحها المطفأ الذي ينام فيه الصدا. يومها قال لي البائع:
- خذ بالك دي ملعونة.. ييقولوا انها لازم تقتل صاحبها علشان ترتاح.

كان الدم يرقد في خلاياها. أنا رأيته ثقيلاً، ثخيناً، لزجاً، يدير منامات خطيرة. هل عثرت عليك يا ليل في مولد ابن الفارض، وأنت ترقص كمجذوب تسلت روحه رويداً؟.. أم رأيته بينما أراجع استمارات التعداد، والمراقبة الصغيرة تخبرني

مالوش اسم غير ليل.. وعایش في أوضة في الترب والناس بتقول إنه هايم.

أینا كان یبحث عن الآخر ؟.. أینا عثر علی شبیئه؟.. أنت نفسک قلت لی سأموت قتیلاً بنصل مطواتی التائهة منذ زمن.. فهل كنت تعرف أنها تنام ملاصقةً للحم بطني؟.. أنا بالذات؟!.. ستسألني من جدید یا لیل لماذا تقتلني؟..

لا أعرف علی وجه الدقة ولا أريد أن أعرف.. ولكنني علی یقین أنك لابد أن تقتل کي أخلص قطعة جدیدة من روجي.. قطعة تملكها أنت، تحيا بین یدیک هاتین. لأنک تعرف جانباً من السر. لأن الناسک قال إنک لابد أن تذهب. سأخلص روجي وأخلصک.

هل تکرهني إلى هذا الحد ؟

أنت تدير یدی بمطواتک. أنت شیطان. تسيطر علی.. یدی الیمنی تطلب دمک قرباناً کي لا تقتل الیسی.. یدی الیسی تطلب دمک مداداً لقصيدة عن شیخ أزرق محلول الشعر.. قصيدة عبقرية سیخسر العالم کثیراً لو ظلت دفينة راحتها الجریحة الآن. لو لم أفعل سأصیر أنا الضحیة، وليس من المفترض أن تكون قیامتی الآن. لم أعد أنام یا لیل، یا شیخ اللیالی المتوحد. وربما أكون الآن، فی تلك اللحظة، بینما أعانقک کأب فی عمة تلك المقابر، وسلاحی / سلاحک یغوص فی قلبک.. نائماً. ربما یكون کل ما يحدث حلماً.. تماماً مثل أحلامک بـ"جابر الیّ تستیظ منها بلا نقطة دماء.. وبحیاة مضاعفة.

ولكنني لسب نائماً الآن.

أنا نائم يا ليل وهذا يكفي.. يكفي أن يكون أحدنا نائماً لكي يصير كل ما يحدث مشهداً في حلم.

المقابرُ معتمَةٌ وصامتةٌ، رغم أن الأشباح تنتنس في العادة بأصوات عالية. اخترت مكاناً ممتازاً لإقامتك يا ليل. تصلنا أضواء المدينة الكبيرة بالكاد، فقط لتضيء الشواهد. لا تنسى القاهرة موتاً أبداً سكانها الأصليين. النازحون من أمثالي ليس لهم هُنا مقابر. عندما أموت يا ليل لن أدفن هُنا. سيعودون بجثمانِي إلى بلدتي مقبرتي الأصلية.. وربما يعيدونني إلى المصحّة، وأهرب كالعادة لكن في هيئة هيكل عظمي نحيف متأنق يرتدي ملابس السهرة. في مدينتي الشمالية سأطل من مقبرتي على القاهرة البعيدة.. هل لك أن تتخيل حجم الحسرة؟! أكره المدن الصغيرة.. الجميع فيها يتقنون التلصص.. لذلك تلاثمني هذه العتمة: القاهرة تضيء حافة النصل، تمنحه لمعته المطلوبة. لديّ أمل صعب بالليل، أن أتمكن بنفسي من الإشراف على جنازتي. لا أريدها بذخة مبهرجة لكن أنيقة دون تزيّد. لا مانع من الصراخ شريطة أن يقتصر على السيدات العجائز، فحناجرهن مشروخة ومعذبة لكنها غير مندهشة. سأختارهن بنفسي كورال من العظام. وأحب أن تكون في الليل. للأسف يستحيل أن تتحقّق هذه المعجزة الصغيرة في بلدتي. الإمكانيات هناك محدودة جداً. أعرف رجلاً هناك كان حلمه الوحيد أن يشاهد جنازته مثلما أفعل الآن، لأنه كان يخاف من غياب تفاصيل يحرص أشد الحرص

عليها. ماذا لو أودعوه المقبرة الخطأ وذهبت كل دعوات الغفران لغيره ؟ ماذا لو أمطرت السماء وزمجت الرعود وأضاءت البروق لينزل نعشه مهاناً في الأوحال ؟. سيكون مشهداً مضحكاً، وستمحو خفة القهقهة الجماعية كل قداسة للدموع. ناهيك عن مصائب أكبر يا ليل.. فكرّ معي قد يموت في اليوم نفسه شخص أكثر منه حظوة، وله أبناء أشداء سيقدّرون بعين فاحصة كل مساهمة مخلصة في خروجه اللائق من الحياة.. وبنات جميلات يستحقن رد الجميل لمن نفخ من روحه في أجسادهن. ساعتهل ستخرج المدينة الصغيرة كلها خلفه تاركة الميت الآخر بلا يد تمتد لإحدى أركان نعشه.

— مشكلة.. وماذا حدث ؟

— عاش الرجل حياته كلها يفكر في تلك اللحظة.. حياته كلها.. إنها عبارة غير دقيقة إذ تشي بانقضاء تلك الحياة.. لا.. ما يزال الرجل حياً.. ينتظر الموت على عتبة بيت منسي وقد تنازل عن كل كبريائه السابق... وما يزال الموت يرفض. ما علينا. أطلت عليك يا شخي دون داع. سأبحث هذا الأمر مع ميت آخر.

نحن الوحيدان هنا على قيد الحياة يا ليل.. أربعة أياد ومطواة واحدة. تتشبث بالحياة الآن كأنك لم تعشها.. كأنك وجدت فقط لتتذكرها.. كأنك لا تعرف أنها خارطة تجاعيد ضخمة لا تطلعك على جانب من وجهك إلا لتترك فيه ندبة. بعد لحظات سأصير وحدي على قيد الحياة في هذه المقابر. إليك بسر جديد في

مدينتي لم تزد رقعة المقابر رغم أن الأموات تضاعفوا كثيرا منذ مولدي. مدينتي الخالية يتزاحم الموتى عند تخومها. نعم.. القاهرة لا تتسى موتاهها، ولن تنساك. بمجرد مغادرتي ستصفو المقابر لأبنائها البررة. هل فهمت يا ليل ؟.. إنني أفتك لأنك تشبهني.. لأن مطوائك لن تصير لي إلا بفنائك. أنت تعرف هدوء القتلة عندما يودعون أشباههم.. تعرف تلك السكينة يا ليل.. ألسنت قاتلاً قديماً ؟!

هل اتخذت القرار؟

ربما.. وربما قرر شخص آخر ذلك ناسك قديم يقود روحي.. ناسك اختارني لأخلفه في تخلص المعذبين من عذاباتهم.. وأنت يا ليل رجل بيدين معذبتين - مثلي تماماً - ترتقان للفنانين أحييتهم النالفة في النهارات.. إحداهما كانت قاتلة ذات يوم، والأخرى خريطة مصائر.. بوصلة تحدد لك الضحايا.. أرأيت كم نحن متشابهين ؟.. هل صدقت الآن أنك تقود يدي من مكمناك نحو حنقها وزوالي.. حتى صرت أحلم بك في ليالي مشيي الأبدى على حافة السطح ؟.

زجاج النافذة مهشم. بدأت الطيور تحتل سماء الغرفة. أخيراً هدأت يداي، نامتا منهكتين. تبقى ساعة على خروج سوسن جارتني الشائخة إلى بلكونتها.

فكرت، قبل أن أقبض روح ليل"، أن أطلعه على حكاية الإسكافي ذي النعلين المجنحين"، والتي سجلها المدون المجهول على لسان الناسك - سبع مرات في المخطوط. ما رأيك يا ليل ؟

حكاية لطيفة. المدوّن - ويبدو أنه كان شغوفاً بالحكاية - رسم على أحد الهوامش صورة للإسكافي كما تخيله شخص نحيف أسود اللون أبيض الشعر تقطر الدماء غزيرة من موضع قلبه.. يبتسم كأن الدماء خلصته من عذابه. وجه الإسكافي المُخَيَّل لم يكن سوى وجهك، يكاد ينطق في صفرة الأوراق الهشة العتيقة.. ومثلك يا ليل، كان يرتدي جلباباً على اللحم وقدماه حافيتان.

في الحقيقة كان ليل ضحيةً مثالية منذ اللحظة الأولى التي رأيته فيها.. فقد توترت يدي اليُمْنى وكذلك فعلت اليُسرى. هكذا أدركت أنني أمام ضحية مكتملة.. تريد يدي اليُمْنى دمها وتريد اليُسرى أن تكتب به سطوراً من الشعر وقصيدة في ديوان. لكن أنت يا ليل قصيدتي الجديدة.. سلمى الآن بعيدة.. قتلها لأنها أيضاً تشبهني، كانت تقود يدي، لكن على العكس منك كانت يدي اليسرى وقتها دائماً تنتصر، يدي الشاعرة. قتلت مُلهمتي، الشيطانة التي كادت أن تُودي بي.. والتي كشفت - مثلك - جانباً من السر.. صارت تحركني مثل قطعة شطرنج. في مدينة مثل القاهرة، ليس بوسعك إلا أن تكون - على نحو ما - وحيداً. أستطيع أن أحصي لك وحيدين كثيرين إن أردت: بائعة فقيرة ذات حذبة ومصور فوتوغرافي يستعير ابتسامة وفتاة تائهة في طقس.. طفل يطير طائرته فوق سطح ورجل ينظر إليها من فوق كرسي متحرك.. سلمى وجابر و...ليل و.....و.....و. كلهم وحيدون يا ليل. يكملون للمدينة زينتها الضرورية. يطلعونني على جانب من وجهي. يوقظون يدي.

هاه.. أتريد أن تسمع حكايتك في المخطوط ؟.. سأتلوها عليك، تماماً مثلما كان يفعل الناسك مع مُدُونِهِ.. اسمع يا ليل... علمتُ أيها المُدون أن الإسكافي يخفي وراء طبقة جلد وجهه الرقيقة الهشة وجه الشيطان المحترق المطرود، وأنه بكفّيه الطفلين اللذين ضنَّ عليهما طول الرفو بقسوته ينتظر قبض الأرواح المحصنة من الغواية حيث يباغتها خفيفاً كشمس تحرق نفسها وتتغذى على موتها. وعلمتُ أنه ما زارني هنا في خلوتي إلا ليقبض روحي، فقبضتُ روحه. لعلك تعرف أنه كان يجلس مقرصاً عند البحر على جبل من المحار، كأنه إله المصائر.. وهو المكان نفسه الذي قَذَفَتْ به إليه منذ أمد يد ملولة من سفينة ثملة، في مهد ممزق ودموع باتساع الدنيا. على يمين جبل المحار جبل نعال وعلى يساره جبل نعال. نعالٌ منسية، تخص العابرين، الذين لا يتذكرون ما نسيوا إلا في مكان آخر بعيد تكون عنده العودة مستحيلة. يستبقونها لهم وينتظر يوماً سيقابلهم فيه على أسرة موتهم ليذكرهم بما تركوا وليطلعهم على وجهه الحقيقي النقي.. مرآته الأكثر سواداً في هذا العالم الغريب المتلاطم.

عاش أشد لحظات حياته يأساً حين ذهب رجال المدينة وأطفالها جميعاً للحرب وعادوا بسيقان مبتورة، فلم يعد يملك إلا الشرود على جبلي المحار.. ناظراً في كف يده التي تحمل المصائر. عندما يستبد به الملل كان يجلس وسط النساء على عتبات الدور، يسأل عن الغائبين ولا يتلقى سوى أسماء موتى

جدد. لم تكن النساء ذا نفع له. كنَّ جميعاً حفاة، وبالمثل لم يكن هو يمثل لهن أكثر من بئر حكايات شاذة. لم تعد إليه مكانته يا عزيزي إلا مع النسل الجديد الذي انتظره طويلاً.. بعد عودة ما تبقى من رجال.

كان نعلاه غريبين. صنعا من طبقة هشة بلون جلده، وعلى جانبي كل منهما انتصب جناحان صغيران بألوان متداخلة كجناحي الفراشة، لا يكفان عن الحركة. لم يتعرضا أبداً - على رقتهما - للتلف. كاتا في واقع الحال خالدين. يوم أتاني قَبْلَ يدي المقدسة. سال لعباه على مصائر كفي المتقاطعة.. ثم أخبرني أن شبحاً يمر عليه كل صباح يساق واحدة، خَمَنَ أنه لأحد العائدين من الحرب. يترك له نعله، فردة واحدة، يطلب منه رتقها.. يذهب ويأتي في اليوم التالي بفردة جديدة ولا يستعيد السابقة.. حتى صار له جبل نعال ثالث يخصه وحده.

أذكر أنه قال لي يوماً كل واحد في هذه الدنيا، سيدي، يولد مرتدياً نعليه، والجميع يُفِرطون في نعالهم لأنهم لا يعرفون بوجودها من الأصل، ولكنني درّبت نعلي على طاعتي فلم أكن أبداً بحاجة لاستبدالهما بزوج من النعال القاتية.. ويمرور الوقت نبتت تلك الأجنحة التي تمكنني من التحليق فوق البيوت. عاش طويلاً ولم تعرف الشيوخة إليه سبيلاً. لم تكن حياته تنتظر طعنة مفاجئة تبدلها بأخرى، وكان يقول إن لا أحد يموت غريباً عن أرضه إلا إذا قرر هو ذلك، وإنه لم يتخذ بعد قراره بالموت في بلدتنا الغربية التي لا يعني لها البحر أكثر من رتق النعال

على شاطئه. على أية حال جثته ترقد بالداخل، في الغرفة المغلقة، خذ المفتاح وتفرج عليها إن أردت لكن لا تقرب النساء. تسألني أيها المدون لحيان استيقاظي في المرة القادمة، لأنني متعب هذه المرة. قد أموت لعدة أعوام. الخلود عذاب لا يدركه إلا خالد مثلي. إنه يرقد بجانب شبحه ذي الساق الواحدة. يتنفس بصعوبة. ربما لا يزال يفكر في جبلي النعال المتروكين عند مكنه.. النعال التي أوكّل إليه رتقها ولم يسعفه عمره فبقيت كماهي يا مدونني وولدي وكاتم أسرار ميتتي.. تاركاً ملايين الحفاة الغرباء ينتظرون في أشنات العالم القاسي عودة شبح الإسكافي الميت.

مع أول خيوط الفجر، خرجت سوسن إلى بلكونتها، كما تفعل يومياً.. وبدأت تنشر كمية ضخمة من "الغسيل على حبالها.. هي ملابس زوجها المتوفى وأبنائها الذين لم تتجبههم. تقف متأنقة، بكبرياء شائخ، في تنورات قصيرة ثلاثم أنسة في بدايات قرن مضى.. غير أنها غائبة على الدوام كأنها استيقظت ذات صباح لتكتشف أنها تعيش بدلاً من شخص آخر. ورغم أن خصلات شعرها الأبيض كانت تتطاير مع هواء الصباح الخفيف كعلامات رعب.. إلا أنني أكتشفت أن لها عينيْن جميلتين، شابتين، وأن جسدها خفيف حتى أنها لو قررت في المستقبل أن تقفز من البلكونة لتموت، لن تتألم.

بدأت أدخن سيجارة، كما هي عادتي، مستنداً بنصف جسدي على حافة البلكونة.. بينما انهمكت هي في عملها اليومي دون أن توجه لي نظرة. منذ جنّت إلي هنا، صارت سوسن هي شريكة صباحاتي الأشد سرية وغموضاً كنت أتأمل وجهها كل صباح كأنني أودّعه.. وكأن المرأة التي أفسدت علي وحدتي، وشاركتني فيها دون استئذان.. والتي تخلص غرفها مع كل طلعة شمس من

الملابس ليست سوى أخت منحتني حق جبرتها وحرمتني رغم ذلك - حق أن تموت بين يدي.

يومياً، وبعد خروجي إلى بلكونة شقتي المرتجلة بدقائق، ألمح الشيش ذا الضلفتين ينفّج. تدلف سوسن إلى البلكونة فجأة كأن يداً بالداخل قد قذفت بها عنوة لتواجه الضوء. لم تنظر إلى أبداً طيلة ثلاثة أشهر، كأنني لم أوجد، كأن ضيفاً جديداً لم يعد يراقب يديها. ربما هذا هو أكثر ما استقزني في تلك الجارة. يؤلمني جداً أن يُطلعني شخص على حقيقة أن وجودي شيء هامشي.. حتى لو لم يقصد. لو غادرت هذه الشقة الآن، ولأبد، لن يتغير شيء في العالم.. مثلما لم يتغير شيء عندما جئت. لن تشعر امرأة تسعينية أن شخصاً يعرفها لم يعد هنا.

ها هو صوت هممتها الخفيفة يصلني دون أن أميز حرفاً.. أفشل دائماً في التقاط أية كلمات من هذه الشبخة.. وحتى عندما تصرخ في بعض الأحيان بسباب متداخل غضباً على الطيور التي تركت مخلفاتها على ملابسها.. يصلني الصوت فقط. عندما تنتهي من صف الملابس على حبالها كانت تتسحب فجأة أيضاً. لا تستدير.. بل تتحرك للوراء، في خط مستقيم، كأن نفس اليد التي قذفت بها تجرجرها للداخل. لا تعود المرأة للظهور بقية اليوم. لا أعرف لماذا ينتابني خوف غريب بينما أتطلع للملابس المجمدة التي تهتز أمامي، بتؤدة. تتحرك أكامها بوهن كأطراف عاجزة كنت أشعر أنها أسباح تحرس وحدتها.

اليوم سبقتني إلى البلونة، مما سبب لي إحباطاً غير مبرر
كانت تقف - لأول مرة - في عباءة بيّنة واسعة، زرقاء، اختفى
فيها جسدها كأنه هواء. راحت تنشر لأول مرة ملابسها عشرات
الفساتين ذات تصميم واحد تقريباً لكن بألوان مختلفة. بالأنامل التي
تجيد عملها، بدأت تعرض تنورات ماضيها أمام لا أحد. وفكرت
ربما صدّقت اليوم فقط أنها امرأة وحيدة.. ولم ألحظ - إلا بعد
انصرافها - وجود مشبك غسيل خشبي على أرضية بلكونتي،
تُبنت فيه قصاصة ورق مصفرة، حائلة.

الخطاب الغرامي، مُذيل بتاريخ بعيد ١٩٤٦/٨/١٢
بالضبط منذ ستين عاماً، مكتوب بخط رقعة جميل، بحبر أزرق
صار حائلاً الآن وأقل دكنة. كانت الكوليرا. الحبيب يكرر عبارة:
لو كنت لا تزالين على قيد الحياة يخاطب امرأة ميتة في
الغالب. يسألها عن أخبار الإسكندرية. المرأة سكندرية إذن. تنورة
ساحلية تحيا بداخلها العظام. يتحدث أيضاً عن حرب وشيكة. هل
كان ضابطاً؟.. دائماً تفرد المرأة على حبالها بذلة ضابط قديمة
الطرز، وبالية. ربما تزوجها حبيبها ذلك نفسه فيما بعد رغم أن
ذلك سيفسد الحكاية فضلاً عن كونه سيفقدها شاعريتها. المثير أن
يكون حبيبها قد قُتل في الحرب، أو قضت عليه الكوليرا..
فتزوجت الأنسة أول شخص طرق بابها.. وظلت محتفظة ببذلة
حبيبها التي أوصى بأن تذهب لها. في ركن معتم بدولابها.
تخرجها حين تصوير وحدها وتتشممها وتبكي. في المساء تنام مع

زوجها بإخلاص، مغمضة عينيها على رجل آخر وبعد وفاة الزوج.. تخرج البذلة أخيراً للنور لتعلن أمام العالم الصامد الذي لم يعد يراها أنها عاشت أسيرة شخص واحد.

في المساء، رحت أقرأ الرسالة مرة أخرى، قبل أن يحين موعد لقائي اليومي بجارتي عند الفجر.. والذي حدّست أنه سيكون هذه المرة مختلفاً.. وفي الحقيقة فقد كنت مرعوباً، ولم أكن أدري ماذا سأفعل معها هذه المرة، ومذا ستفعل هي. هل ستُنظر في عيني؟.. هل سنبادل حديثاً مقتضباً.. أم ستجاهلني مثل كل مرة، مكثفة بتطبير رسالة جديدة إليّ؟. استوقفتني عبارة بعينها، ووجدتني مأخوذاً بالرعب "قراءة شخص سوانا لهذا الخطاب تعني موتك وموتي كيف مرّت علي هذه العبارة في الصباح؟! وفكرت هل تدعوني المرأة الوحيدة لقتلها؟!.. كيف عرفت أن لي يداً تسير في طريق الدم؟..

لم تظهر سوسن في الفجر. حين خرجت للبلكونة مرتبكاً وجدت بذلة الضابط نائمة على حافة البلكونة. أكمامها تنزح في الهواء الخفيف. يبدو أنها قذفت بها في المساء وقررت ألا تخرج. أصابني إحباط طالما تمنيت أن أرى سوسن في العتمة. لكن.. ربما لو كنت ظللت طيلة الليل في البلكونة ما خرجت. عيناها تعملان من خلف الشيش. لم تفعل ذلك إلا عندما تأكّدت من عدم وجودي. ربما خشيت سوسن المواجهة الأولى، مثلي.

البذلة على مقاسي تقريبا. يبدو أنه كان على نفس الدرجة من نحافتي، غير أن قامته كانت أقصر بسنتمرات قليلة. الأكمام لا تغطي رسغي.. وكذلك البنطلون قصير بعض الشيء. تأملت نفسي أمام المرأة. انتفض جسدي، وشعرت بأنفاسي تنسحب مني. وضعت يديّ بشكل تلقائي في جيبي البذلة، للألمس جسدا معدنياً دقيقاً، وورقة. مفتاح صغير وخطاب مقتضب لبن أعادر الشقة إلا إذا أتيت.

خرجت من جديد للبلكونة. المشهد أمامي رمادي. فتيات صرن الآن سيدات شائحات بمشين مشيوكي الأيدي مع شباب مفتولين، شعورهم لامعة مغسولة بالصابون. الشارع مبلط تعبره سيارات كُتبت على لافتاتها خصوصي مصر أمعنت النظر أمامي. عينا سوسن ليستا خلف الشيش.. أو هكذا يبدو لي.

بملايس الضابط قطعت السلالم باتجاه شقتها. فتحت الباب بسرعة. دار المفتاح أكثر من ثلاث دورات في العقب لقد أغلقت المرأة الوحيدة الباب من الداخل. كما توقعت، كانت شقة من زمن آخر. غارقة في العتمة كأن ذلك الذي بالخارج ليس الصباح. طراز الأثاث عتيق، ورائحة ثقيلة تغمر المكان. لم أتخيل أن يكون سقفها عالياً لهذه الدرجة، بعيداً وعامراً بالثريات في كل الغرف. أعملت يدي في كل مفاتيح النور ولم تعمل. المرأة كانت تحيا في العتمة.

جسدها كان ممدداً على سريرها العالي ذي الأعمدة، في الغرفة التي تطل على بلكونتي بالذات. حاولت أن أوقفها، بنحنية

في البداية، ثم بكلمة يا مدام ولكنها لم تستجب. بدأ أهرز جسدها برفق.. ثم بعنف. جسدها أزرق ومثلج. عيناها مفتوحتان على اتساعهما. جسدها متيبس. اختارتني سوسن لأخبر الناس بموتها قبل أن تتعفن في الظلام. ربما انتحرت. ربما مات حبيبها القديم اليوم بالذات.. تحقق وعده بميتة متزامنة لكليهما. لم أجرب قبل ذلك أن أقتل جثماناً.

أي لون سيكون عليه دمُ امرأة ميتة إذا تحولت مطواة في جسدها ؟.

ذات صباح أيقظ الدجاجُ الناسكَ للمرة الأخيرة من مبيته. لم يكن الجزء الأكبر من جسده قد تحلل بعد، وبشكل أدق، لم يكن الموت الطويل المتقطع قد أتى بعد على الأشياء التي لا يستطيع الحياة بدونها.

كان على مدوّن مذكراته أن يظل مقرفصاً بجانبه، بلا نوم، محققاً، في انتظار واحدة من يقظاته الحادة المفاجئة حيث كان الناسك ينتصب فجأة بينما يغادره اللون الأزرق وتقفز كرتان حمراوان على وجنتيه.. ليُملي جملاً تلغرافية قصيرة.. أو سطوراً موزونة من الشعر.. أو حكاية من "ألف ليلة وليلة" وأحياناً ينخرط في إلقاء صفحات طويلة من طفولته كانت معها يدُ مدوّنهُ توشك على التوقف تماماً، قبل أن يُغمض الناسك عينيه فجأة كما فتحهما فجأة، عائداً لسباته العميق في العالم الآخر دون أن يعلم أحد متى سيقطعه من جديد.

كان يعودُ في كل مرة بشوّهات أكبر وبظفرة رعب لا تُقهر. يندندن بأغنية، أو يلقي بنكتة إباحية، وأحياناً كان يتكلم لغة غريبة

مجهولة خمس المدوّن أنها اللغة التي يتحدّث بها الموتى مع بعضهم وكان على المدوّن أن يكتب كل ذلك لحظة إلقائه وبنفس السرعة اللاهثة للشفتين وإلا فسيضيع الكلام للأبد، وكان عليه أيضاً أن يظل بلا نوم حقيقي حيث كان الميت يستيقظ بلا إنذار. ولن ينسى تلك الفترة الكابوسية حين ظل الميت نائماً لثلاث سنوات متواصلة لم يتحرك له فيها عضو، واستيقظ ليقول عبارة واحدة أين أنا؟.. دوّنها بهدوء، قبل أن ينام الميت من جديد لعام ونصف. بعده لم تعد أطول ميّاته تتجاوز الأربعة أشهر.

كانت لحظات الإثارة الحقيقية تأتي حين يستيقظ فجأة ليسرد ببطء جميل واحدة من قصص حبه التي لا تحصى ومضاجعاته العجيبة، كالمرأة الثمانية التي تجول في أنحائها بينما كان في التاسعة.. والفتاة ذات الأربعة عشر ربيعاً التي ضاجعها ليلة أتم المائة الأولى من عمره. كان يفعل ذلك بذاكرة حادة لم تغب عنها أتفه التفاصيل، ولكن واحدة فقط من هذه القصص كان يكررها كل عدة أعوام، بنفس الطريقة، بالحركات والسكنات وتلونات الصوت، دون أن يزيد حرفاً أو ينقص حرفاً.. وكل ما كان يفعله المدوّن أنه كان يراجع فقط خلفه ما يقول، ليتأكد أن لا شيء يحتاج للإضافة أو الحذف، بينما ينصت باستمئاع لحكاية حبه مع الفتاة التي كانت تماثله في السن لحظة بلحظة إذ خرجت شهقة بكانها الأولى نندياً تماماً مع شهقة بكانه. ويسأل المدوّن: ألا تعرف شيئاً عنها؟ فيهب المدوّن رأسه بالنفي، لينخرط الناسك في

بكاء حاد ملثاث وصاخب، يظل يخفت تدريجياً بينما تتسحب كرتا
الدم من وجنتيه ويبدأ اللون الأزرق في احتلال جسده من جديد.
كان كلما استيقظ ينظر حوله بإحباط وهو يكتشف أنه عاد
ليتنفس هواء الأرض الساخن الخانق، وتبدو نظراته كأنها تخص
طفلاً أخذوه من سرير عنة ليُطلعوه على شكل مقبرته.. ولكنه -
وللمرة الأولى - لم يستيقظ بشكل طبيعي في ذلك الصباح البعيد.
أيقظه الصراخ الرقيق الحاد المخنث للدجاج.

كان هناك بشرٌ قليلون بالخارج توقفوا عن السير لالتقاط
الأنفاس في ذلك الصباح الذي سطعت شمسُه مبكراً. كانوا
يصطفون في طابور قصير، تسري بينهم همهمات خافتة ملولة.
ومد وجهه ليرى الضوء لأول مرة منذ أعوام طويلة. سأله
المُؤن: هل تعرف الميت؟، فأجاب بوجه خالٍ من أي انفعال
نعم.. أعرفها. واستدار للمدُون قائلاً ب لهجة أمرّة: يمكنك الآن أن
تتصرف. وقبل أن يهم بإبداء أي استفسار، قاطعه بحسم: أخبر
أبنائي أن يأتوا على عجل قبل أن تفوح الرائحة.. واحرق هذه
المخطوطات قبل هبوط الليل.

عندما وقع المخطوط بين يديّ سألت نفسي: لماذا لم يحرقه
المدُون الملعون كما أمره سيده؟. لماذا احتفظ به حتى وفاته، تاركاً
صفحاته لعنة منسية على مدينة تودع كل مساء خطاياها؟. في
إحدى الصفحات استوقفتني هذا المقطع قتلتها لتصبح أكثر
جمالاً. كانت في حياتها امرأة قبيحة.. كان أنفها طويلاً مستقراً..

وشفتاها رفيعتين مقززتين.. شارب خفيف فوق الفم.. خط من
الزغب الكريه الأخضر.. وربما قتلتها من أجل هذا الشارب
بالذات. ها قد اختفت الدماء التي منحتها دائماً مسحة الحياة
القيحية في سيمائها.. صارت زرقاء كأميرة منام. بات أنفها
دقيقاً.. اكتنزت الشفة السفلى فجأة وتدلّت كثمرة ناضجة.. هل
يفعل الموت ذلك؟.. بل القتل أيها المدون التعس.. الموت يحول
الإنسان لجثة كريهة منتفخة.. يأتي بالجوارح من السموات
ويوقف الديدان في أعماق الجسد.. أما الفتق المفاجئ الذي
تصعبه صرخة القتل وابتسامة القاتل.. فإنه يخلص الجسد من
الدم الفاسد.. يترك ندوباً مفتوحة تغادر منها الأرواح الدخيلة
بجانب المقطع، على حافة الصفحة، وبشكل طولي كتبت يد غريبة
هي يد المدون على الأرجح - سطرأ بلون أحمر قان: كان
طريقه إلى الله محفوفاً بالدماء.

فى ملابس الضابط الأليفة، رأيتك يومها تغادر بناية المباحث،
وعشرات الطيور تتحرك بأناة على كتفيك ورأسك.. حتى أنها
أخفت ربتك تماماً، جردتك من أقدميتك. وعندما اقتحمت شقتى
بالقوة - بعنف ضابط المباحث الذى يفتك الصداع برأسه بسبب
أصوات الطيور، والذى فقدت بذلته هيبته بفعل مخلفاتها الطرية
النفاذة - تعرفت عليك.. وأسديت لك خدمة عمرك. تحركت
الطيور مفزوعة بمجرد رؤيتى وانطلقت تحلق برفيف ثقيل،
مرعب، فى سماء الصالة الشاحبة التى أردتها دائماً سيئة
الإضاءة. أجساد داكنة، وبالتأكيد عمياء.. تعاويز محترقة، راحت
تتطاير مرتبكة، تتزاحم فى الأركان، يسقط بعضها تحت أقدامنا
مفرفرة، دائخة. عادت إليك ربتك أخيراً.. رأيتك تنفض كتفيك
من بقاياها وتتحسس بروز النجمات الست المقسمة بالعدل على
جانبي رقبتيك. ولأننى كنت عارياً تماماً، لم تمنع أنت بدورك حين
طلبت منك أن تخلع بذلتك لأنظفها لك. قلت لك - ولم أكن أكذب
- إننى أيضاً خلعت لتوى بذلة الضابط التى عدت بها من شقة
"سوسن" لأنظفها من الذكرى.

نحن عاريان الآن. ضع فوهة مسدسك لصق جمعتي، واضغط الزناد. جرب، وستكتشف أن دمائي لن تسيل. لا بأس. لست خالداً.. ولكني أعرف أني لن أموت قبل أن يكتمل الديوان. أرغب أن أنهيه بامرأة، لأنني بدأت برجل.. وسأترك لحضرات الضباط قصة خلق من بقايا جبر ودماء. تخيل.. حتى المانيكان الصغير الذي على هيئة طفل، والذي كان يحبو وحيداً بعد ما ناه عن السرب.. تركت فيه نصلي ولم يخذلني: سألت منه الدماء.

أستطيع أن أقتلك بمطواتي.. رغم أن المسافة بيننا ثلاث طلقة لا نصل. المطواة تجعلك قريباً من ضحيتك.. تلتصق بها في لحظة نهايتها مستشعراً لذة التوحد تكون - بالتزامن - ملكاً لكما معاً.. مقبضها في يدك، وذوابتها في قلب الضحية.. أما المسدسات فيعرفها من يغمضون عيونهم لحظة إطلاق النار.

هاقد أطلقت ثلاث رصاصات تسكن جسدي الآن. رأسي وقلبي ویدی الیمنی، ولم أمت.. لم تغادر نقطة دم واحدة خزانه جسدي.. هل صدقت؟. أنت غيبي أيضاً - شأن كل الضباط - لأنك اعتقدت أن إيقاف یدی الیمنی هو الذي سينهي مستقبلی كقاتل. لو كنت تلك بعض الخيال - فقط قدراً قليلاً منه - لأدركت أن القضاء على اليسرى هو الحل المثالي، بل الوحيد.

يصح أن أجرب أنا بالمثل: أقذف المطواة باتجاهك، كهدف متحرك، تاركاً طعنة متقنة في قلبك.. ثم أتوجه إليك بهدوء وأنزعها.. وأعواد الكرة.. سبع مرات. بعدها ستخشاك الطيور إلى الأبد. ستصيرُ فزاعةً مغدورة، خيال مائة مطعون.

قبل موتى سأجول في المدينة لمرة أخيرة، وسأراها كما أحببت دائماً: حليماً غائباً في زرقة باهتة. وكمن يدير مشهداً بالتصوير البطيء.. سأرى السيارات أبداً من السرعة العادية للمشاة، والمشاة يتحركون كالسلاحف.. المشهد الذى يستغرق فى الأحوال العادية دقيقة سيستغرق ثلاث دقائق على الأقل. بعد ذلك تأتى السرعة المجنونة التى تعجز معها عن متابعة أي شيء: السيارات فى تحركها العادى تطير، الناس فى مشيهم الممتد المستكين يجرون كأنهم فى سباق. المشهد الأصلي لن يوجد أبداً. بطء شديد. سرعة قصوى. بطء شديد. سرعة قصوى. لماذا أنت صامت؟.. كرر خلفي: بطء شديد. سرعة قصوى. إن قلتها عشر مرات دون أن تخطئ لن أقتلك يا حبيبي. أعدك.

زوجتك اسمها "سلمى"؟.. شبحها يتجول كل صباح فى الطرقات الضيقة للمدينة، بعيداً عن الميادين والشوارع الرئيسية. تظهر فى الصباح المبكر، تطرق شبابيك الأدوار الأرضية وتمضى. حين تفتح الفتحات الفخريات - بشعورهن التى أحرقتها "الحنة" الرخيصة - شبابيكن تجد كل واحدة إصبع "زوج" ملائم تماماً للون بشرتها. كيف تعرف سلمى وجوه النائمات خلف النوافذ؟.

هكذا ترى سلمى بدورها المدينة كما تحب: طائرة ورقية مدفونة فى الرمل.

بعد قليل ستطرق سلمى الباب، وستقف بيننا. شبحان لامرأة قُلتَ مرتين يقفان بين رجلين - فى الظروف العادية - وأربعة

فى حالة وجود مرآة. ستأمرنا أن يُعطى كل منا ظهره للآخر إلى أن تطلق صافرة البدء. ستغيب قليلاً، وتستغرق وقتاً أطول من المطلوب حتى نُنظنها نسيت.. وتحرق كل منا الرغبة فى الالتفات الطفولي لنرى ماذا تفعل. تكون هي ارتدت بعض الملابس وقد تذكرت أنها جاءت عارية. تختار قميصاً وبنطلوناً من دولابى لا يلائمان مقاييس جسدها. بعدها ستقارن بين مؤخرتنا العاريتين. جسدى كله حليق، خال من أى شعرة. أزيل حشائشه يومياً كي لا تشوش على أيقونات لحمي والأشعار التى تسكنه. مؤخرتى جميلة.. وبالنسبة لسحاقية، فإنها مؤخرة امرأة. زوجها مشعر.. حتى أن جسده من الخلف دغل معشوشب، رجل حقيقى لدرجة لا تصدق.

أخيراً ستفقد سلمى، تذكر أنها تركتنا ما يزيد على الساعة: إصبعه على الزناد. أناملى على المقبض. تطلق صافرة من فمها مدعومة بإصبعين تحت اللسان، لتتواجه أخيراً. أنت تطلق الرصاص، وأنا أقذف مطواتى باتجاهك. لن أموت، ولن تموت أنب.

ستموت "سلمى التى نسيت مغادرة مكانها بينما. طلقتك فى رأسها.. مطواتى فى قلبها. هذه هى ميتتها الثالثة. لك زوجة خالدة.. ياله من عذاب!

سيرندى كلانا بذلة الضابط التى لا تخصه وقد اكتشفنا أن بذلة كل منا تلائم تماماً جسد الآخر.. كما أن ذلك سيمنحك أقدمية لابد أن تكون متوفرة فى لحظة كهذه.. وفوق ذلك كله ستتخلى

عنك الطيور تماماً. سترعجنى أنا.. تحط على كتفى و رأسى بينما نغادر الشقة ممسكين معاً بجسد سلمى الذى لا بد من إخفائه فى الحال.. صرنا شركاء فى قتلها كما كنا دائماً شركاء فى جسدها. "ضابط مباحث يقتل زوجته بالاتفاق مع عشيقها" عنوان مثير. مذهب. لا مانع من بعض العناوين الفرعية الشارحة. فرصة ذهبية لـ "هنا لتعلن عن موهبتها الصحفية فى تحقيق جديد. "القتيلة ماتت مرتين قبل ذلك فى ظروف غامضة. "الزوج: قتلناها بعدما تأكسدا من خيانتها لنا. "العشيق: ارتدت ملابسى فجئ جنونى وسددت إليها مطواتى .

سننوجه بسلمى إلى غرفة ليل الخالية منذ موته فى قلب المقابر. لن نزعجنا المهمة الخفيفة للموتى. سيقرب جابر منا. سينوجه نحوها ويداعبها بساقه الصناعية التى دبب فيها الحياة فجأة. سنتركها معا ونغادر.. وبمجرد أن تتركنى، بينما تتأهب، لأن لديك عمل فى الصباح. سنبادل البذلتين من جديد. ستعود لك الطيور التى صممت أذنى تماماً ونقرت شعر رأسى ورقبتى.. لأراك تتحرك فى العتمة يحرسك صخب الزقزقات والنعيق. هكذا سينتهى المنام.. الذى تراه الآن مثلى تماماً، فى سريرك، لتستيقظ مفزوعاً وقد تعرفت أخيراً على القاتل الذى تبحث عنه.. عرفت ملامح وجهه ومكان بيته.. ولكنك حين تتوجه إليه فى الواقع، سيكون هو فى انتظارك.. بعد أن أتم مهمته.

أنا - على العكس تماماً منك - استيقظت بسكينة غير مسبقة.. لأول مرة منذ سنوات طويلة أنام بمثل هذا العمق..

وأرى حلماً قابلاً لأن يُحكى. وفوق ذلك.. حضرت العلامة التي أشار لها الناسك كثيراً في مخطوطه، والتي قرأتها مراراً، مُتَظَرِّراً تمثالها: **قَتِيلُكَ الْأَخِيرُ سَتَكُونُ عَلَامَةً مَجِيئِهِ نَوْماً مَدِيداً بَعْدَ أَزْمَنَةٍ أَرْقَى.. وَأَحْلَاماً مَتَجَسِّدَةً بَعْدَ نَضُوبِ صُورٍ.. وَسَيَكُونُ الْوَحِيدُ الْحَيُّ بَيْنَ أَشْجَاخِ الْمَنَامِ** حسناً.. كانت هناك تَتَنَظَّرُنَا لدى وصولنا إلى المقابر.. هي الوحيدة التي على قِيدِ الْحَيَاةِ بَيْنَ كَرٍّ مِنْ رَأَيْنَا.. تَجْلِسُ مَنْزُوعَةً، عِنْدَ عَتَبَةِ بَابِ لَيْلٍ.. مِنْهُمْ كَةً فِي قِرَاءَةِ مَخْطُوطِ عَتِيقٍ.

بمجرد أن رَأَتْنِي اخْتَفَتْ، وَسَمِعْتُ صَدَى صَوْتِهَا الْمَخِيفِ يَرْدَدُ فِي أَنْحَاءِ الْمَقَابِرِ الْخَالِيَةِ: أَنْتِ.

هناك تقف في النافذة.

امرأة أخرى الآن، تخونها الظلال.

صرنا قريبين جداً، رغم أنني لم أرها منذ دفنة سلمى. تتابع
بشغف حكايات القتلى. تكتب عن قاتل عبثي يقبض أرواح
أشباهه. تذهب إلى مواقع الأحداث. شيء لطيف. صحيفة نحيفة
صدرها ضامر ومؤخرتها ضخمة جداً.

في الجريدة تواجه هناك محدثها بصوت آمر، كأنها ليست
المرأة التي تطالعه بنصف انحناءة، وتترك مؤخرتها تتطلع
للخارج.

ها هي مومس مثالية تخترق صباحاتك يومياً: رفيقة، خدومة،
تقود قطيعاً من الرجال في النهار بحسم، وفي الليل: هي الخادمة
المتفانية، العبداء الأشد إخلاصاً في هذا العالم تحت ثقل رجل.. أي
رجل. تقول لك اظهر أيها القاتل كأنها تدعوك لفنجان شاي.

تترك كل شيء لتتطلع إلى المدينة، لثلاث دقائق، بالضبط
ثلاث دقائق. تتطاير أوراق الدشت تحلق في سماء المدينة

أمامها وتمد ذراعيها لالتقاطها دون جدوى. بدأت الأوراق حياتها الخاصة. لا نعباً. "سأكتبها مرة أخرى" شخص من شرفة الدور الثالث والعشرين العالية هناك، تتطلع للقاهرة بما يليق بابنة بارة، بفريسة يهزمها الضوء.

لحظات هذاء الحقيقية تعيشها في "الأسانسير"، مربع أحلام يقطتها الزجاجي. سلوكيت مخدوش تضاعف المرايا دكنته. تكتب بإصبع الروج روز بينك من ذلك النوع الذي تمنينه دائماً على الزجاج. لا أعرف على وجه الدقة كم مرة انفتح باب الأسانسير لأجد رجلاً يقبل هناء. هي تحب ذلك أكثر مما تحب الجنس. تلتقيه في الدور الرابع وتودعه في الدور التاسع، أو تلتقيه في السادس وتودعه في السابع. لا يهم المدة التي تستغرقها القيلة. المهم أن تحدث. ثم يفتح الباب، وترتبك. هي تريد أن ترتبك وأن يوقن الداخل أن شيئاً غير عادي كان يحدث حتى انفتح الباب. تريد أن ترى وجهها في المرأة وهي تسوي خصلات شعرها بخجل وتضع ذراعيها متقاطعتين على الجيبة كأى امرأة فاضلة. تحب أن تراقب توجس الداخل، ارتباكها، مغالاته في احترامها، لأنه لا يريد أن يشعرها أنه يعرف أنها امرأة غير فاضلة على الإطلاق. إذا كان الداخل امرأة فذلك بالتأكيد أفضل: حسد، غيرة، حقد، نظرات متأففة تعكس رغبة شبيهة وعجراً عن تحقيقها. الآن يعرف كل فرد في المبنى ذلك. لن يكون مدهشاً أن يفتح باب الأسانسير بينما هي منهمكة في قبلتها. سيدخل المنتظرون بهدوء، يضغط كل واحد فيهم زر الطابق الذي

سيتوقف عنده، تاركين هناء في انهماكها كأن لا شيء يحدث.
الآن، لم يعد يوجد فرد في المبنى ذي الطوابق الستة والعشرين
لم يتنوق شفتي هناء في هواء المصعد البارد. أجيال جديدة
تواجه الحياة يومياً بشفاه ملوثة، في مكان ما هناك شفة واحدة
مقسمة بالعدل على الجميع. بهذه الطريقة فقط تستطيع هناء أن
تتجول في المدينة كأنها بيتها.

من النافذة الملاصقة لمكتبها تقطع هناء ببصرها المستشفى
العسكري القريب، الكاندرائية الضخمة، والملهى. هذا هو العالم
في تلك اللحظات المختلصة ولا غير: أشباح جنود وراهبان
خريفيون وبائعات هوى بلا زمن. تنسى في وقتها مؤخرتها
تماماً، تتركها بريئة وحرّة. تتطلع بعدها نحوي بوجه صاحب
لضحية مبتلة، وتضحك. تضحك هناء بما يليق بمتأنقة: ربة عمل
طالما لم تغرب الشمس، ومومس كل الليالي.

في الجريدة استقبلتني هناء بوجه محايد. خمنت أنه ليس نوعاً
من عدم الترحاب، ولكنه قناعها في العمل. لو مددت يدي بغتة
باتجاه وجهها ستلتصق الطبقة الرقيقة بكفي. سأواجه التجاعيد
الأصلية لامرأة وحيدة. أمامها كومة من أوراق الدشت
منهمكة في كتابة شيء عني.

مساء الخير.

- مساء النور.

قالتها كقاهرية أصيلة. ممطوطة بعض الشيء، لا تخلو من
حميمية غير أنها تبقى محايدة.

أنا سالم.

- طبعاً. أهلاً بك. اتقابلنا قبل كده.

في المدرسة قالوا لي: فيه صحيفة جات هنا تحقّق في القتل.. واتخانقت مع ظابط المباحث علشان كانت عايزه تكشف الغطا عن وشه. بتّ دكر كده.

لم أكن موجوداً حينها. جئت بعد أن انتهى كل شيء. لو تقابلنا ربما كشفتّ هُنا أمرى. رجل لا تقابله إلا في وجود جثة. رمل الفناء الساخن يشبه تراب المقابر. نفس الهواء الداكن، النباتات الشيطانية. الظهيرة الخشنة، والقاهرة التي لا تعباً. ربما أيضاً ارتدت يومها نفس ملابسها في لقائنا الأول. بل بالتأكيد حدث ذلك.. لأنني توجهت إلى المدرسة يومها بنفس ملابس دفنة سلمى.

تحت زجاج مكتبها صورة نصفية لفتاة محجبة. تشبهها. الحاجبان كانا أكثر غلظة. وجهها أقل شحوباً.

- دي إنتي؟

- أبوة.

انتي كنتي محجبة؟

- لغاية تالّة جامعة.. بعد كده فكيت.

و ضحكت.

كدت أن أخبرها أنني حلمت بقتلي لها، وإن يدي اليسرى تتألم.

- معاك سجاير؟

أخرجت سيجارتين، لي ولها.
- وعامل إيه ؟
تمام.

- قلتي يومها هنتصل ونقعد ونتكلم.
- معاك حق... معلىش..... آديك شايف !
بمجرد أن أشارت للورق تطاير.. قفزت من مقعدها بعصبية
وبدأت تلملمه. وصل الحوار لنقطة نهاية. مرحلة المجاملات
انتهت. بالتأكيد تريد أن تسألني عن سبب مجيئي.
انت عرفت منين اني بشتغل هنا ؟
انتي قلتي لي يوم سلمى.
- فعلا ؟.. ممكن.... يومها كنت مندمرة.

.....

- ولأ سلمى اللي قالتك ؟
- سلمى كانت معاني فكرة.. لكن انتي كمان قلتي لي.
تحب الأدوار العليا. لم يعرف القاهرة من لم يطل عليها من
شرفة تصلح لسقوطه. تضع هناك إذن روج روز بينك مثل
المرحومة سلمى. أيهما تقلد الأخرى ؟.
عادت للكتابة. تكتب بيدها اليسرى. مصادفة غريبة. تكتب
بيدها اليسرى عن قاتل يكتب بيده اليسرى. كم شخصاً قتله هناك
باليمنى ؟. لها عشيق. سلمى أخبرتني بذلك.

لون عينيك مختلف يا مدام. سوداوان اليوم. أنت من عاشقي
العدسات اللاصقة إذن. يوم سلمى الله يرحمها كانتا زرقاوين،
أو ربما رماديتين، لم أنجح يومها في التحديد. تنتظر إلي ههنا الآن
بحدقتي شخص آخر غير الذي رأيته هناك. زوج العدسات في
المحلول، على سطح المكتب. شعرت أن ذلك لا يصح، لا أعرف
لماذا. من الممكن أن تكون قطعة من ملابسها الداخلية منشورة
على حافة النافذة الملاصقة لظهرها. تطمئن بها كل حين.
تتحسسها بيديها وتتشممها بعنق.

- سلمى قالتلي انك بتكتب شعر.

أيوه.

- نشرت حاجة ؟

شغال في ديوان .. فاضل فيه قصيدة واحدة.

الكتابة دي طلوع روح.

برقت العبارة في ذهني. أربكتني. فذة هذه المحطمة. ولكنني

قلت بهدوء

فعلا.

أنا كنت بكتب شعر أيام الكلية.

وبطلت لما فكيتي الحجاب ؟ هههههه.

استقبلت دعابتي السمجة غير المحسوبة بتعبير خاو.

تجيبيلنا حاجة بقي .. إحنا بننشر شعر.

قالتها بابتسامة مجاملة، كأنها تتحدث إلى طفل.

- أكيد.

تحت الزجاج أيضا شهادة تقدير. أفضل تحقيق صحفي.
جميل. ما شاء الله ما شاء الله.

مشهد القاهرة أفضل من هنا، لو جربت الوقوف على حافة
سطح بيتي. كل الناس جيرانك. بورجوازية صغيرة وفارغة،
تتطلعين إلى حفنة أرواح تتألم. يكاد الفضول يقتلها لأطلعها على
المخطوط، لأحكي لها حكاية الناسك، أو لنقرأها هي لتعرف من
ستكون ضحيتي القادمة. لا تصدق أن مخطوطاً مهترئاً يحدد
حياتي، أن حفنة حكايات في مجلد مصفر قادرة على أن تجعلني
أحمل مطواتي وأقتل شخصاً وحيداً في كل مرة لأخلص قطعة
جديدة في روحي.. لأكتب قصيدة جديدة في ديواني.

ستترك هناك كل ذلك وتسرح مع "ليل البعيد في جلسته.
تعرف أنه يراقبها. تعرف أنه يعرف أنها في تلك اللحظة تنتظر
إليه وتفكر في شكله كعاشق، كمجرد رجل في سرير. هاهو إله
مغдор آخر يرقد معزولاً في قسوة كفيه المتألمتين. يقولون إن
شبحه لا يزال يجلس تحت الشجرة الوارفة الضخمة، يزوره شبح
جابر ويتبادلان همهمات خفيفة غير مفهومة.

- مين اللي واقفة في البلكونة في وشك دي ؟

دي المرحومة جارتني.

- دي بتطلع من جيوبها ورق وتاكله.

جوابات.

- وبتنشر الهدوم ليه بدري كده ؟

تعرفين يا هناء أنه في الفجر يستيقظ الموتى، كما تعرفين أن الموتى جميعاً أخوة.

ثلاث دقائق فقط تصل فيها هناء بعينها إلى بورسعيد. تغلق عينها. ليس في الدنيا من هو أكثر وحدة من امرأة تتذكر. تغلق بعدها الشبابيك بينما أريد أن أسألها ماذا لو فتحنا كل النوافذ؟.. سيدخل الضوء عدوانياً بعض الشيء، وبعد قليل سنتعوده، كقدر يجعلنا نواجه الأشياء دون غطاء. قد تعبر بعض الكائنات أيضاً، لعلها حيوانات بائدة أو طيور سماوات سحيقة مضت.. أحجار قذفها معبد أو شمعدانات فارغة مقتلعة من حائط دبر. تتشابه في الضوء وتذوب ملامحها. وحدها بقايا القراء والريش ونبثارات الرمل والمعدن ستظل احتمالاً مبيّناً لرفيف مفاجئ... لرعب لن نملك حياله سوى التسحب على أطراف الأقدام بحثاً عن باب.

متى جئنا إلى تلك الغرفة؟ لا نعرف. لماذا جئنا وعن أي شيء كنا نبحث؟ لا أحد بإمكانه الإجابة. لقد وُجدنا فقط، كأننا برزنا من العدم مثل كائنات تواجه الحيرة التي تسبق الرقص.

تخبرني هناء أن المكان قريب من البحر. تخرج الكبسولة البنفسجية وتقسمها إلى نصفين: نصف في فمها.. نصف في فمي. تمدد ساقيها بينما أقرفص كأسير. نتخيل: قراصنة. ثملين في الشفق، يودعون الميناء ويستقبلون الحانة، وديعين كالهارب من فضيحة ما. قليل من الصمت ثم يبدأون الثثرة، ويدخنون بشغف. لكل منهم عين واحدة مبصرة كما علمتنا القصص يستعملونها في لحظات الحب القليلة التي يحتفظون بها للعالم. العين الأخرى،

الحدقة السوداء التالفة، هي ما ادخروه ليستطيعوا مواجهة العالم الحقيقي دون أن يُفِرطوا في التأثر. تهتز "اللمبة" فوقهم ويتركهم اهتزاز الضوء الشحيح مرتبكين فجأة. ثم يتعاركون. يقتسمون الغنائم قبل الحصول عليها ويخرجون تاركين قتيلًا بالداخل، بينما يُخلص النادلون أوراقهم النقدية من نقاط الدم الساخنة.. وبعد قليل تتداولها المدينة، تصير في يد كل شخص ورقة نقدية بدم جاف متيبس يحيا في تجاعيدها.

تخرج هناك "ورقة بعشرة"، تفردها أمامي، تتركني أقشر البقعة الداكنة المستقرة على وجه الفرعون الشامخ. نفس الورقة كانت ذات صباح بين أنامل بائعة ورد فقيرة. أتحسسها بين إصبعي الإبهام والسبابة. ألمسها بشبق مغمضاً عيني. أقول لها: "هذا دم امرأة" لا تصدقني، تستغربني، ولا أقدم تفسيراً.

كانت المدينة على حالها عندما اقتادونا: صفوف المهرجين تتعري ببطء، المومسات يستقبلن زبائنهن من الغرباء، الريفيون يلوذون بالحوائط وتظل أكفهم تتحسسها في مضيقهم.

كل الأشياء كما هي: الحقائق عامرة ببقايا طعام العائلات بعد نهار النزاهات البريئة هذا. هياكل أسماك السردين تعوق السيارات عن السير بشكل طبيعي، والشبح الليلي الذي لم يحن موعد مجيئه بعد، يقف ملطخاً بأصباغ العالم، لا يسرق الأطفال كما اعتقدت الأمهات والزوجات الحديثات لكن ليمنح الشفاة سعادة غامضة في عتمتها.

المكان قريب من البحر.. تردد ههنا، بينما لا زالت تستحلب نصيبها بسيل لعبها الجارف، أنا ابتلعت حصتي بسرعة، تركتها لسوائل المعدة. أقول أنا بالتأكيد " كنا نلمح قوس أضواء الشريط الساحلي الممتد إلى لا مكان، واستنشقتنا رائحة يود، بل إن الموج راح يزورنا من حين لآخر في موجات قوية، مهشماً في كل مرة قطعة جديدة من زجاج النوافذ، بمفاجأة كتل ملح وصخور، وشوشات محار وفلول أسماك.. وتمنينا في المرة القادمة أن يحمل لنا غرقى. كنت أريد أن أقول لههنا: ماندا لو فتحنا كل النوافذ؟.. كنت أريد أن أجيب: لن يحدث شيء. سنظل أسيرين لتلك الغرفة، كقدر مكتمل لا تعنيه مصادفات العالم غير المنتهية.. وسيحتضر الضوء ونكنس الكائنات بمقشة، ولكننا سنرى وجوه بعضنا البعض بوضوح. سيعرف كلانا أنه كان يتحدث طوال الوقت لواحد من اثنين: ميت أو عدو، وحينها.. لن نستطيع أن نخمن أيُّنا سيكون القتل الأول الذي سيقع عليه اختيار الباقيين.

بحذر، أفضُ "الرباط الضاغط" عن كف يدي اليسرى. يدٌ كاملة، راحة حقيقية لها خمس ذؤابات، يدٌ أتعرف عليها الآن فقط كأنها لم تكن ذات يوم لي.. لا تبدو أبداً لمن يراها مختلفة عن أي يد في العالم: تلك التي تلوح وتصافح وتضرب وتقتل. الآن أريد أن أكتب، بل لا بد أن أكتب. ههنا لا تزال في الشقة.. تتعذب وحيدة في السرير.. في انتظاري.

أفعل الآن مثلاً يحدث في الأفلام القديمة.. أترك سيل المياه المائل ينهمر من السبعة وثمانين ثقباً في "الدش" على أرضية البانيو الملساء، وأجلس على المرحاض، بيدي أوراق بيضاء وقلم "جيل أسود ذو سن سيّال، سخي، حبره المُهْدَر الذي لا يجف سريعاً يلانم مزاجيَّتي. تنتظر هناء مغادرتي الحمام بعد "الشاور السريع. ماذا لو جلست ساعة مثلاً.. ساعتين.. ليلة كاملة؟.. ماذا لو انتهيت في وقت مناسب عشر دقائق على الأكثر وانضمت لها في السرير، واكتشفت هي دون أن تحتاج لأن تستشقني بعمق - أنني لم أستحم، لم يقرب الماء لَحْمِي؟

هناء لن تنام، ولن تغادر الشقة، ولن تطرق باب الحمام لتستعجني مهما تأخرت. حتى لو بقيت ليلتين ستظل تنتظر على يقين بأنني أستحم، ولن تندش حتى، ستعتبره أحد طقوسي: أن أستحم لليلتين متواصلتين.. وحتى لو مت لن تتعرف على الرائحة إلا بعد اقتحام الجيران للشقة بالقوة. سيجدونها جالسة كأن جثة لم تتعفن على بعد أمتار منها، تستشق الهواء الميت القادم من حمام لم يتوقف هطول المطر فيه منذ أيام.. سيحدث ذلك بعد أن يكون هذا الهواء نفسه قد تسلل لكل الغرف المغلقة بامتداد شارعين.

هناء الآن مشغولة بالصداغ النصفي، لا يورقها بقدر ما يدعوها للتفكير فيه. دماغها تكاد تنفجر. صوت "تكتكة" أزرار "الكيبورْد" الأليفة لجهاز الكمبيوتر الذي تعيش نصف حياتها معه في العمل، الصوت الأليف، نصف الصامت، الذي لا يشبه أبداً

ضحيج "الآلة الكاتبة" مثلاً، والتي استعملتها هناء لسنوات.. هذا الصوت هو فزعها الشخصي، لعنتها الذاتية.

تفكرُ في تناول نصف قرص جديد، لكن هذا يعني مينة مينة، سيجيء الجبران أيضاً ويكتشفون جثتها. بينما أنا في الحمام منشغل بيدي التي تكتب وقد بلغ الماء عنقي. هناء الآن في القاهرة.. بورسعيد بعيدة. حتى النيل هنا ليس إلا شارعاً أزرق.

يدي اليسرى متببسة بعض الشيء. لم أخرجها من سجنها منذ ثلاثة أشهر.. وإذا شئت الدقة.. منذ سنة وتسعين يوماً، ذات ثلاثاء. كنت أريد أن أكملها مائة. نعم.. مائة يوم كاملة لا تتنفس فيها يدي، لا تصافح الضوء.. غير أنني فعلتها الآن. الرباط الضاغط" متسخ جداً، خرقه لها لون شمس تغرب، لكن بلا شجن خاص. يجب أن أغسله جيداً أو أستبدله بأخر جديد. لا.. لن أغسله، لن تنتظر يدي يوماً كاملاً في العراء حتى يجف، دائماً أطرح هذه الفرضية وأنسى - للحظات - استحالتها. لي حلم كبير، أن أضع يدي مستقبلاً داخل جبيرة سميكة من الأسمنت، مقبرة مفتولة.. تكريم لائق بيد أحييت للنقاد، يد لم ترفض العمل القليل الذي أوكل إليها في عمر كامل. حينها سأترك للناس فرصة نادرة لحفر تذكارات ورسم قلوب تخرقها أسهم وكتابة عبارات لذكري قد تعيش بعد أن يجرد الحانوتي يدي من صدفاتها، ويتركها عارية مثلي في المقبرة. لن يرضح أحد لإرادتي إن أوصيت بأن تدفن في جبيرتها، ستكون مقبرة داخل مقبرة. إذا شعرت بقرب الموت فقط إذا تمكنت من معرفة لحظة مجيئه على وجه الدقة سأبترها وأخبئها.. وهذا لن يحدث إلا إذا قتلت نفسي، وهو ما لم

أقرره حتى الآن، وحتى لو فعلت، هناك دائماً تلك المسافة بين اتخاذ القرار وتنفيذه، هناك دائماً موت مفاجئ قادر على أن يدركك: سكتة قلبية أو دماغية، حادث مشي أو سيارة، اختلال التوازن على درجة سلم مكسورة أو نداء غامض يشدك لأسفل بينما تدخل سيجارة في البلكونة.

كُتِبَ سطرًا واحدًا بعد ثلاث ساعات، واكتشفت بعد أن وضعت التاريخ والتوقيت تحته أنه لشاعر آخر: "أنا من الذين كلما مشوا.. ابتعدت أحلامهم أكثر".

بمرح تلوح هناء بالمطواة في وجهي. تدير حلقتها المعدنية بين أصابعها بحنكة. تشق بها الهواء في استعراض محسوب، تاركة الصوت الخاطف الأليف يداعب أذني. لاعبة مدربة جيداً. المخطوط ملقى بإهمال على الكنية. قصائد الديوان متفرقة بإهمال على الترابيزة. فعلت كل شيء إذن. أنا منحتهم الفرصة لذلك. ما كان يجب أن أتركها وأدخل الحمام، وحتى لو حدث، ما كان يجب أن يستمر مكوثي أكثر من دقائق. يدي اليسرى غائبة في إخفاها. فشل جديد. لأول مرة تمتد على يد شاعر آخر. ربت عليها طويلاً وقلت أنا السبب.. لا عليك. حاولت إقناعها أن غيابها الطويل من الطبيعي أن تكون له بعض الآثار الجانبية، بل إنني قلت لها، ويعلم الله أنني لم أكن أكذب هذا السطر سأستعين به في الديوان وأشير إلى صاحبه. لم تفلح كل محاولاتي. أشعر بها مهزومة. ارتفعت درجة حرارتها فجأة، ثم ابتردت بعد دقائق، تيبست كقطعة ثلج. حُمي.

تتبقى قصيدة واحدة ثم تغمضين عينيك إلى الأبد يا صغيرتي.
كنت تريدين دوما أن أدق عليك الأوشام وكنب أرفض. سأفعلها
قريباً. سأحملك للتقاعد بشكل لائق.

اقتربت مني ههنا أكثر وهي تضحك. تعلّبت على ملل
انتظاري بالتخلص من ملابسها قطعة قطعة.. ومع كل اكتشاف
لها لواء من الضحايا كانت تقذف بقطعة جديدة من البلكونة.
تطلع الناس لأعلى. ماهي إلا دقائق حتى عرف الجميع أن هناك
امرأة في شقة العازب تتعري في البلكونة. ربما كانت هناك
الآن جمهرة بالأسفل. عرض استرئيز مجاني. ترندي الآن مايوه
من قطعيتين. منعني خلجي أن أطلب منها تثبيت الشمعدان الذي
في ركن الصالة على رأسها، أضيء أعمدته، وأشعل منها
سجائري بينما هي ترقص عارية. في اقترابها أكثر بدأت تتخلص
منهما. عندما وجّهت المطواة نحو وجهي، بين عيني، كانت قد
صارت عارية تماماً.

تركّت خيط الدماء ينساب على وجهي طولياً، ليقسمه إلى
وجهين.

بطرف لساني بدأت أذوق دمي للمرة الأولى.
الجرح ليس غائراً ولكنه خالد.

انحنيت والتقطت ماتبقى من ملابسها. طوّجت القطعتين
الصغيرتين إلى المنتظرين في الشارع، ثم انتزعت المطواة من
بين يديها بخفة، لأكتب قصيدتي النهائية.

القاهرة ٢٠٠٢-٢٠٠٧

صدر للكاتب

- ١ - طيور جديدة لم يفسدها الهواء - قصص - دار شقيقات - القاهرة - ١٩٩٥.
- ٢ - شارع آخر لكائن - قصص - الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة - ١٩٩٧.
- ٣ - ملك البحار الخمسة - قصص للأطفال - كتاب قطر الندى - القاهرة - ٢٠٠٠.
- ٤ - شريعة القطعة - رواية - دار ميريت - القاهرة - ٢٠٠٣.

Tarek emam 74@hotmail.com

www.tareqemam.blogspot.com



بيده اليمنى يقتل «سالم» - القاتل المتسلسل الغائب في رؤاه - ضحاياه، ليكتب بيده اليسرى قصيدة جديدة مع كل ضحية.. تاركاً سطوراً من الدماء تحيا بامتداد المدينة. و مدفوعاً ببقين غريب، يعثر «سالم» على مخطوط عتيق لناسك قديم مجهول، يصير نبيه الشخصى، يقود روحه، ويتخذ من مخطوطه كتاباً مقدساً يدير له حياته الخاوية. «هدوء القتلة» رواية هى مزيج من الواقع والخيال فى عينى فرد متوحد لم يعد يملك من العالم سوى بقايا حبر ودماء. وهى -على جانب آخر- نص «القاهرة» التى تبدو هنا أشبه بمدينة تحيا حلم يقظة شاسع، بما يجعلها مكاناً متخيلاً بقدر ما هو قائم متاح. القاهرة هنا خلاء يحيا أشباحه على هامش الصخب، بوحدة مضاعفة، حالمين ومعزولين ومغمورين بضوء فوق واقعى: «ليل» الإسكافى العجوز والقاتل المتقاعد، «جابر» الشبح ذو الساق الصناعية، «سلمى» التى تُقتل مرتين، «سوسن» الأرملة الوحيدة التى تحيا مع بقايا ملابس حبيب من قرن مضى، وغيرها. عالم غرائبى يرصده «طارق إمام» فى عنقه وصوفيته، عبر راو يدير الوجود بمطوآت تحت يقين أنه نبي ضد.. بينما يحيا صراعاً آخر تديره يده اللتان تكاد إحداهما أن تفتك بالأخرى.

إذا اكتملت القصيدة بين يدي «سالم» سيكتمل العالم بفنائكه الشخصى.. هذا هو رهانه المستحيل فى حياة لا تُطلع المرء على جانب من وجهه، إلا لتترك فيه ندبة.

